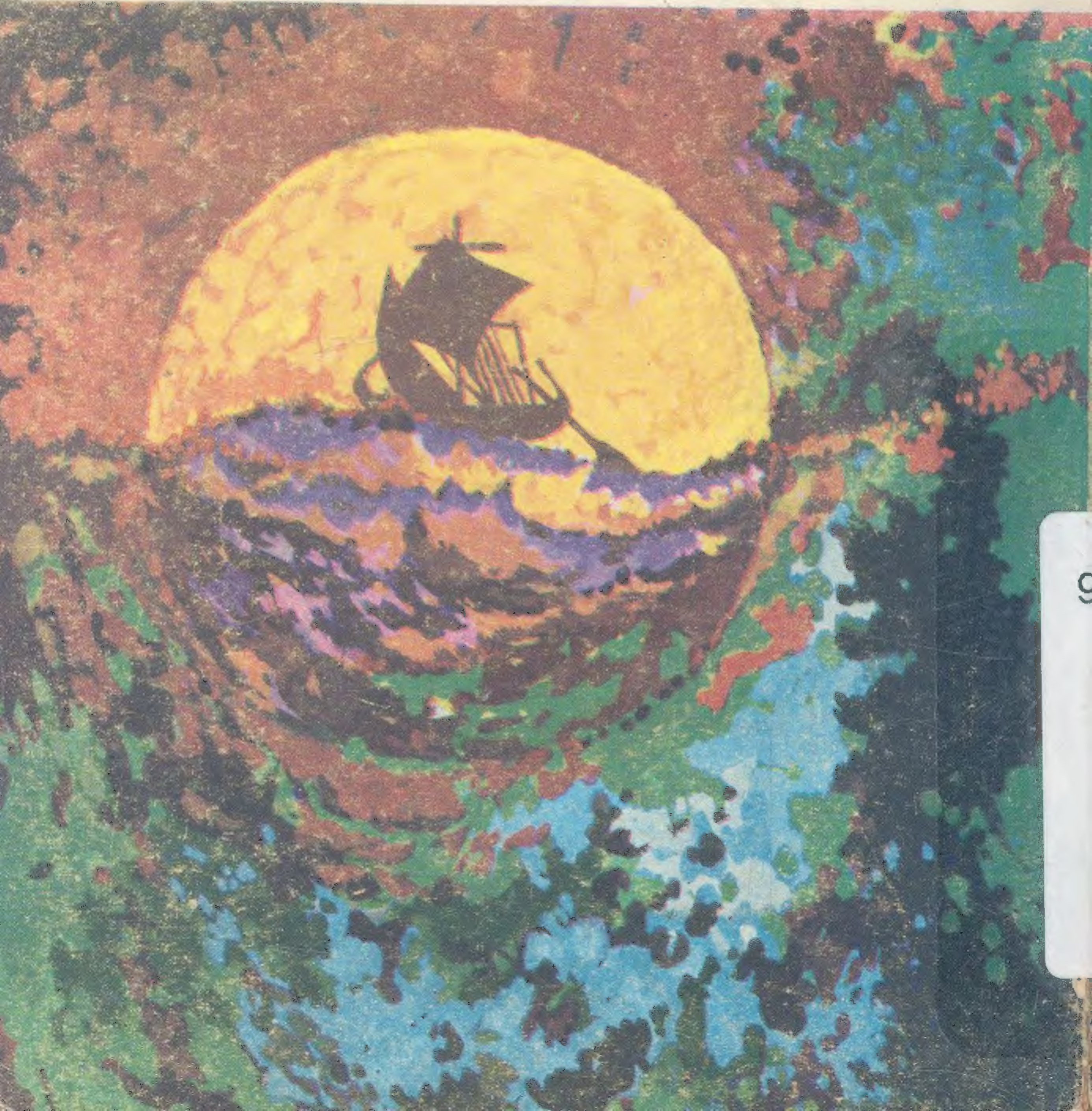


افغان

تأليف: نثار هايبردا  
تلخیص: میثیل تکل  
تقدیم: کمال اسلاخ

# رحلات

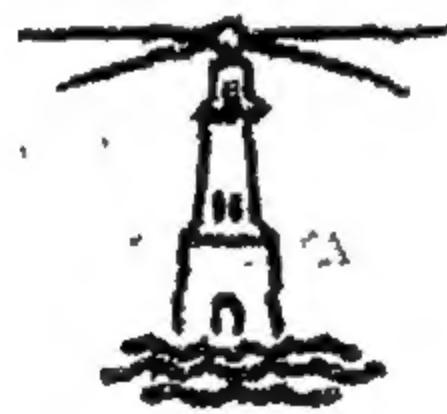








تصدر في أول كل شهر  
رئيس التحرير: السيد أبو النجاة



دار المعارف بمصر

خذ المعارف ٤ دار المعارف

اقراء ٣٦٢ - يناير سنة ١٩٧٣

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . ٢ . ع .

حالات ع



# رحلاتی

للرحالة الزويجي ثور هايردال

تلخیص

میشیل تکلر



دارالمعارف بمطبع

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .



## هذه الرحلة . . وهذا الرجل !

مقدمة :

### بقلم : كمال الملاخ

من حول فنجال شاى فى مكتبى بالقاهرة كان لقاءنا الأول من ٥ سنوات . ونظرت فى عينى ضيفى الأشقر الطويل القامة إلى حد ما . . . ولم أجد إلا الجراءة والإقدام . . . ثم شيئاً آخر ربما أسميه : المغامرة . وكان حاضراً فى زيارته إلى مصر للمرة الأولى ليدرس إمكانية قيامه بما كان يعتزمه فى ذلك الحين ، ذلك أنه يعرض مشروعه فى أن يجدل مع رجال يختارهم زورقاً من نبات البردى كما فعل أجدادنا ، ولكن ليبحر به من مياه بحرنا الأبيض ومن مضيق جبل طارق يجتاز به ويعبر المحيط الأطلسى فى وجهته إلى خليج المكسيك ، كما لم يفعل أجدادنا حسب دراستى وتصورى . وبالطبع حمى النقاش يومها وراح الحوار ينسج جاستنا وهو يكاد يقرب من الغضب . ولم أعجب فاسمه الأول ( ثور ) هو رب العاصفة والرياح العاتية وزجاجة الغضب عند أهل شمال أوربا . أهل الترويج وكل ما يجاورها من دول خمس فى إسكندينافا .

قلت لصاحبنا ضيف القاهرة القادم من بعيد : ( ثور هايردال ) الذهبى الشعر الطويل القامة إلى حد ما . وكان ثالثنا زوجته الجميلة : لماذا تغضب

وتشور حول حقائق التاريخ والعلم . وأنا واحد من المتعصبين لتاريخ بلادى ،  
والفخور بكل تفاصيله وما أعطوا للحضارة . وكان كل نبت من  
فروعها نبتاً مصرياً . ولكن العلم ، علم التاريخ ، وحقيقة التاريخ تعلو  
على مشاعرى . أنا أبحث عن كل ورقة خضراء أضيفها إلى شجرة  
الحضارة الضخمة المورقة المصرية . . . ولكن سماء التاريخ تعالوها بزرقة  
صفاء العلم والحق يظللها . أنا مع مصر وحضارتنا الضاربة ومع الحقيقة .  
صحيح أننا هنا على ضفتى النيل وعند شواطئ بحرينا الأحمر والأبيض  
وعلى طول سواحل بحيرتنا الخمس فكرنا ضمن ما فكرنا وسعينا إليه أن  
نركب الصعب . نركب الماء . نطفو فوق صفحاته ونعالو موجاته . وهكذا  
فكرنا فى بناء المركب . أول زورق . أول مركب فى التاريخ . تاريخ البشر .  
صنعنا أول زورق أولا فى خيال الأساطير . هل تذكر أسطورتنا ذات  
تفاصيل الوفاء والإيمان ، وكيف تغلبا على الخديعة والمكر والدهاء والشر . . .  
أعنى أسطورة أوزير وإيزيس . وكيف اختلف الأخوان . حتى الأخ  
الشرير على أخيه الطيب الخير أوزير . . . . . وتستمر التفاصيل ، وإذا  
بتابوته يطفو مع الأمواج وتيار النيل . فيسرى به شمالا ليلتلفه موج  
البحر الأخضر العظيم . . . هكذا كانوا يسمون بحرنا الأبيض . . . وإذا  
بالتابوت يحمله الموج إلى شاطئ ببلوس القديم وهناك عند شاطئ جبل  
لبنان يتحول أوزير من تابوته إلى شجرة وارفة الظلال . ومن جذعها الذى  
يختاره حاكمها ليرضى به انبهار ابنته الأميرة ليأمر بنحت عمود خشبي  
يكمل به قاعة الأعمدة فى قصره الجميل . وتطير إليه إيزيس . زوجته

الوفية . وكانت أول من تخيل لها البشر أجنحة . كانت أيضاً إلهة السحر وهناك تنكرت . تقربت وسعت إليها الأميرة واستضافتها لترى ما أحضرت من عطر وأدوات زينة . وفي الليل تتحسس عمود زوجها . وتقتلعه . وإلى البحر تسعى به وتأتى به طافية على الماء حتى مستنقعات الدلتا .

وهناك يبعث من جديد بعد أن أطرته دموعها ... وتستمر الاسطورة . ولكن هكذا كانت أول رحلة بحرية في الوجود . في وجود خيال البشر وأسطورته . . . التي تتابع . يظهر فجأة ( ست ) أخوها الشرير من وراء أكمة . لا يرضيه ما يرى على ضوء القمر الساطع ... قصة وفاء وحب وخير وإخلاص . . . هذا هراء . إذن لماذا هو موجود ولماذا الكراهية والشر الكامن . . . فيستل سيفه وينهال على أخيه الطيب أوزير يقطعه إرباً . . . ويمسك مقهقهماً بأشلاء الأخ الكريم يقذف بكل منها إلى مكان بعيد في السماء لتتشتت أينما وقعت ! ! .

وإذا بإيزيس الوفية . . . تهرغ باكية مفكرة في ثانی رحلة لها في التاريخ الأسطوري . . . تجمع سيقان نبات البردى . . . من عند الشاطئ ذاته . . . تجذله زورقاً نباتياً صغيراً ... تركبه ... صاعدة نيل مصر . . . حتى تجمع أشلاء جسد زوجها فيما عدا قطعة واحدة . وتستمر القصة تحكى وتحكى وتروى مزيداً من التفاصيل والحكايا . . . ويستمتع بالقصة ، قصة الأسطورة ، كل من يسمعها من الأحياء . . . وهكذا يستمرون في جدل زوارقهم الصغيرة التي يعبرون بها النيل فقط من مكان إلى مكان ومن شاطئ إلى شاطئ ... وحرصوا على أن يجدلوها بادی



الأمر من نبات البردى متوهمين أنه لا يغرق . إنه نبات مقدس طالما اختارته الإلهة إيزيس .

ويتحضر المصريون أكثر ويجلبون ما ينقص وادينا من خشب . ويبنون منه ويصنعون زوارق ومراكب . . . لتعبر وتبحر وتقبل إلى مسافات طويلة . ولكن من خشب لا من أغصان البردى .

ويحاول ضيفي ( ثور هايردال ) . . . أن يتحدث .

هو الضيف . . . إذن أتركه يتكلم . ولكن لا يستطيع نقاشًا . فالعلم مع التاريخ أقوى من صورة خلفية أرادها لرحلته المقبلة . لمزيد من الإثارة العالمية . إنه يحيي حضارة مصر العظمى .

وحضارة مصر عظمى نعم . حضارة كبرى نعم . هي أولى حضارات كوكبنا ، وقبل حضارة الصين القديمة بأكثر من ٧٠٠ سنة . ولكن أعود إلى الحق من خلال وثائق التاريخ .

فالثابت أننا فعلا كنا أول من عبر أمواج بحرنا الأبيض . ولكن إلى حد منتصفه . في ركنه الشرقي نعم . ولكن قلة من رحلاتنا كانت تجوب في عصورنا المتأخرة ما بين مصر وشواطئ آسيا الصغرى واليونان القديم وحتى روما وبالقرب من شواطئها وبالطبع جزر بحرنا حتى برقة غربًا . ولكن أكثر من هذا في هذا البحر فلا .

ومن قديم الزمان سجل رجال « سنفرو » مؤسس الأسرة الرابعة ما كان يفخر به إذ أمر بأن تنقل البحرية المصرية خشبًا من أخشاب أشجار الأرز من لبنان القديم إلى مصر فشحنت ما يملأ حمولة ٤٠ مركبا مصريًا .

وغنى عن التعريف أن المصريين ما قبل التاريخ بآلاف السنين كانوا يرمزون إلى المراكب العتيقة برسوم أو نقوش ساذجة على أواني الفخار الأولى كزخرفة أو على نتوء الصخور كرسوم تعكس أحلامهم في الانتقال من مكان إلى آخر . وقد عثر عالم ما قبل التاريخ والأسرات : فلندز بيترى على ما عثر عليه وكشف عنه نموذجاً لمركب شراعى يعود تاريخه إلى ١١ ألف سنة وذلك خلال حفائره في الفيوم .

والحديث والكلام والكتابة عن المراكب المصرية وأنواعها يطول من مراكب إبحار وسفر عادية تنشر الجناح أو الشراع كلما هبت الريح أو أبحرت في اتجاه الريح أو تريد الإسراع واختصار مدة السفر . وكان الشراع في متوسط مساحته من ٦٠ إلى ٧٠ متراً مربعاً ، يلفونه على ساريته التي ينزلونها إلى سطح المركب في حالة سكون الريح في اتجاه متوازٍ بـ [ كاميرا ] أو حجرة أهم من في المركب والتي تقام عادة على مسطحة مسقوفة ومحاطة إما بألواح أخشاب وغالباً بحصير البردى . . . ولعل أفخم المراكب الملكية هي : ( نجمة القطرين ) التي كان يبحر بها تحتمس الثالث . وكان لكل مركب اسم . فلا غرابة إذن أنه اشتق « ثورها يردال » اسم [ رع ] لمركبه الذي غامر به ، وإن اتخذ من شمس مصر وإلهها القديم رمزاً يؤكد به مصرية رحلته . وتختلف أطوال مراكبنا وأنواعها .

- مراكب وزوارق عادية : تعدى النيل غالباً مجدولة من البردى .
- مراكب نيلية : لرحلات طويلة مصنوعة من خشب ترفع مؤخرتها . ذات مجاديف عديدة . ودفة من مجدافين . وعليها مقصورة

صغيرة ليقف عندها « كابتن » الرحلة .

● مراكب بحرية : أكبر حجماً كانت تبحر إلى الجنوب في بحرنا الأحمر إلى بلاد بونت ، أو إلى شرق بحرنا الأبيض إلى سوريا أو لبنان القديم مثل تلك التي نطلق عليها ( جبيلا ) أى المتجهة إلى ميناء جبيل .

● مراكب شحن : ولها أبعاد وعروض مختلفة .

● مراكب الشرطة البحرية : وهى تلك التي تجوب مياه النيل لحراسة مراكب الشحن والسفر والإبحار العادية هادفة الأمان لكل من يركب صفحة النيل من المعتدين واللصوص والقراصنة . كما أمر بها حور محب .

● مراكب حربية : مثل تلك التي استعملها تحتمس الثالث أيام أسرتنا الـ ١٨ من تاريخنا القديم خلال غزواته أو حملاته الحربية الـ ١٧ عدداً وكان من بينها خدعته الحربية الكبرى ، يوم أن حمل بعض رجاله عدداً من الزوارق والمراكب الحربية فوق عجالات تجرها الثيران واتجهت شرقاً ، وما إن وصلت إلى نهر الفرات حتى كشفوا عنها وأهبطوا زوارقنا ومراكبنا الحربية إلى سطح مياه النهر هناك ، ونجحت في عبوره وهى محملة بالعتاد والجنود المصرية وغزت شرق النهر وأقامت هناك سجلاً بذلك النجاح .

● مراكب صيد ونزهة لصيد الأسماك وقضاء وقت طيب يوم الإجازة والأعياد .

● مراكب وزوارق رياضية : تتبع مباريات السباحة . . . ثم يلعبون



فوقها ويتبارون . . . أى فريق ينتصر على الآخر فيما لو استعمل المشاجب  
(الزقل) الخشبية الطويلة يدفع بها ممسكها منافسه عن سطح المركب  
الآخر . . . بين صخب الروح الرياضية ومداعبتها .

● **مراكب دينية :** مثل تلك التى كانت تابعة للكهنة وفرعون تحمل  
زورق الإله : مثل المراكب الدينية الضخمة التى كانت تبحر فى عيد  
هو ( ايبوت ) عند ما تقلع من عند شاطئ معبد الأقصر شمالاً حتى  
ميناء معابد الكرنك حاملة زورق تمثال « آمون رع » . . . فى  
وسط همهمة الطقوس الدينية وهتافات المبتهلين وأنغام الكهنة والمعازفين .

● **مراكب مقدسة :** وهى مراكب الشمس . . . التى تعودوا أن  
يضعوها فى خدمة الروح إلى جوار مدفن صاحبها مثل تلك التى منحتنى  
السما حظ وشرف الكشف عنها فكانت أولى مراكب حقيقية من خشب —  
وليست رسومًا فقط أو نقوشًا لها — جنوب هرمنا الأكبر هرم خوفو فوق  
ربوة الجيزة فى ٢٦ مايو ١٩٥٤ تطول كل منها نحو ٤٥ متراً بعض  
أجزائها من قطعة خشبية واحدة تطول ٢٣ متراً ! إحداها لرحلة النهار  
وكان الفراعنة يطلقون عليها ( معنجت ) والثانية التى تجاورها وتمثلها طولا  
لرحلة الليل ويسمونها ( مسكتت ) وبذلك أثبت أيضاً أن المصريين  
عرفوا من ٥٠٠٠ سنة على الأقل وتخيلوا عالماً بأنه دائرى أو بيضاوى يلفون  
حوله يطلقون عنان خيالهم إلى أعلى نقطة فى السماء نهاراً وراء الشمس فى  
رحلتها ، ثم هناك عالم آخر يتخيّلون وجوده وهو الذى يسمونه ويطلقون

عليه « ايم دوات » أى العالم التحتى السفلى ، أى القوس الذى يطوف من تحتنا لعالم تجوبه الشمس ، ذات الشمس ما بين مغيب وشرق جديد تلد لها من ذاتها أو ذاته فقد كانت ذكراً وأنثى فى الوقت ذاته عند الأقدمين . . . وليدأً جديداً لها : شمساً جديدة : أطلقوا عليها ٣ أسماء على عمرها الذى يختلف بين الفجر والمغيب : « نفرتم » وهى وليدة تحبوفى المشرق . . . ثم ما تلبث شاباً قوياً « رع » وهى تجتاز السماء علواً وارتفاعاً — ومن هنا اتخذ صاحبنا : ثور هايردال : اسم مركبه . . . ثم والشمس فى طريقها إلى الغرب وإلى مغيب إنما تكبر وتشيوخ وتتوكأ على عصا وهذا يتخذون لها الاسم الثالث وهو « أتوم » .

ونعود إلى ثور هايردال ورحلته أو مغامرته التى يحاول أن يربط فيها بين حضارتى مصر والمكسيك وأنه برحلته البحرية هذه سيثبت أن أجدادنا عبروا إلى هناك بدليل تلك الأهرامات المقامة على أرض المكسيك ؛ هذه وجهة نظره التى أنخالفها . صحيح أننا وقديماً عبرنا كل منتصف بحرنا الأبيض كما بينت واجتزنا حتى شلالنا الرابع فى النيل وأبحرنا عند كل موافى ببحرنا الأحمر حتى وصلنا إلى باب المندب وبلاد بونت والصومال . ثم هناك رحلة يتحدث عنها هيرودوت أنها تمت فى عصر الفرعون « نكاو » الثانى : وجم ايب رع الذى عاش فى القرن السادس ق . م . أو على وجه التحديد حكم مصر ١٥ سنة ابتداء من عام ٦٠٩ ق . م . ذلك أنه يقال إن نكاو — وهو ثانى فراعنة الأسرة الـ ٢٦ إبان عصر بعث نهضتنا المصرية القديمة — بعث بجماعة للطواف حول أفريقيا . استغرقت

رحلتهم ٣ سنوات . وبرهان هذا أن بحارتها عادوا ليحكوا كيف رأوا الشمس تشرق عن يمينهم أو من الغرب ! . وكان هؤلاء البحارة من الفينيقيين . ويذهب الباحثون إلى أنهم بذلك قاربوا جنوب أفريقيا . ولو أنى أعتقد دون جلب فخار رخيص . . . أنهم قد يكونون أبجروا حول منحني كبير بالقرب من باب المنذب فيما لو اجتازوه جنوباً . لأنه لا توجد أى فائدة ترجى من مثل هذه الرحلة ؟ بعقليتنا الواقعية القديمة ! . ثم أتناقش مسألة الأهرامات بين مصر والمكسيك . . . أو تلك المقامة خلال دولتنا القديمة والوسطى فوق ربى غرب وادينا وأهرامات المكسيك ، وأشرح لضيئي أشقر الشعر الطويل القامة إلى حد ما الفرق الواضح بينهما زمنياً ومعمارياً ووظيفة ! .

فأهراماتنا الـ ٨٢ إنما هى أقدم طويلاً . . . بدأت فكرة إقامتها تحت سماء مصر كل منها كمدفن لفرعون أو للملكة زوجته وذلك كما أسلفت فى حقبتين من حضارتنا القديمة ألا وهى القديمة حتى المتوسطة وكان صليبها من حجر وإن اضمحلت أخيراً فكانت من طوب لبن فى قلة منها . وفى الوقت ذاته كانت أوجهها المائلة نحو الجهات الأربع الأصلية لدنيانا، إنما لانعكاس بهاء رب الأرباب الذى يعتقدون فيه : الشمس ( ر ع ) ثم تمر فترة طويلة لا يعيشها إنسان واحد يستطيع أن يعبر البحر والمحيط ويتابع ما تركه فى مصر ليقيمه حيث حط به المقام الحديد ويشيد هرمًا فى المكسيك . فلا يوجد إنسان عاش وحده ١٤٠٠ سنة ! ! وهذه هى المحوة الزمنية أو الفترة التى طالت حتى ظهر هرم واحد مبنى من



الحجر وهو هرم بالنكى فى المكسيك . وأصغر حجمًا ، وقد أقيم عام ٦٩٢ ق . م . أى بعد أن هجر أجدادنا فكرة إقامة الأهرام بـ ١٤ قرنًا من الزمان ! ! لأنها كانت ظاهرة للاعتداء ، ومن ثم غيروا أساليب الدفن الملكى الفرعونى فحفروا له مقابرهم داخل جوف الجبل خاصة جبل القرنة غرب الأقصر إبان عصر الإمبراطورية القديمة أو عصر الدولة الحديثة من تاريخنا القديم .

والواضح أن أغلب أهرامات المكسيك قد بنى بعد بداية العصر المسيحى وبعد الميلاد بـ ٢٠٠ سنة وأكثر . وهى أقل حجمًا وارتفاعًا . قاعدة ترتفع هرمية بالطين وليست حتى بقوالب الطوب النيء ، لترفع فوقها معبدًا للقمر لا للشمس ! ! .

وأتابع حديثى مع ضيفى النرويجى المغامر الذكى : ثور هيردال ... أن الحضارة ، أى حضارة ، إنما تتبع طريقين أولهما :

● الانتشار : ذلك أن تقتبس حضارة ما أقيمت على أرض بعيدة من حضارة سابقة لها وإن كانت تعيشها على امتدادها .

● الانعزال : وهى ثانى الطريقين . . . وهى إمكانية قيام حضارة فى بقعة ما دون اتصال مع حضارة أخرى . وهى تلك التى أميل لها فى حالتنا هذه . أى توارد أفكار وخواطر . وفكر الإنسان واحد ، واقعه وأحلامه وتخيلاته ومخاوفه وقلقه وأوجاعه وحتى أمراضه . . . أينما كان ، ربما يسمع بحكاية عن طريق إنسان يتناقلها من رجال قوافل يجوبون على الأرض

أو من بحارة من ميناء إلى ميناء آخر... وتبقى الحكاية عالقة في الخيال حتى ينفذها الإنسان. مثل ما يحدث الآن على سبيل المثال من سفن الفضاء والطلوع والمشى فوق القمر... ألم يتخيل أجدادنا كل هذا وأكثر. فإذا كان هو المقصود فأهلاً وسهلاً بمغامرة الترويجى الجرىء هايردال... أما محاولة ربط الصلة في أن مصريين عبروا واجتازوا فلا... مهما استند إلى هواجس عابري سبيل مثل المؤرخ الأوربي القديم بليينوس سكوندس كاخوس الذى عاش في بداية المسيحية وليس في عصر المصرية القديمة... عند ما ذكر وكتب بأن أجدادنا عبروا البحر في قوارب من البردى.

وهو بالكاد ما كانوا يعبرون به الضحل من البحيرات أو البرك لصيد الأسماك أو البط لأخذ البيض من أعشاشها فوق سيقان أحراش النباتات أو يعبرون به عرض النيل من شاطئ إلى آخر. وبالطبع ليس من رأى كن سمع. ولهذا فالواقع الملموس برهان أكيد.

وأعود لضيئي الأشقر الشعر الطويل القائمة إلى حد ما... أنظر في عينيه فلا أرى إلا مزيداً من الإصرار والجرأة والإقدام قائلًا لي قد يكون الحق معك مع الصدق ولكن سوف أقوم برحلتى. سأقوم بها. وتضحك زوجته الجميلة الرقيقة وهى تحكى كيف كان زوجها يخاف البحر صغيراً ولا يعرف حتى السباحة!

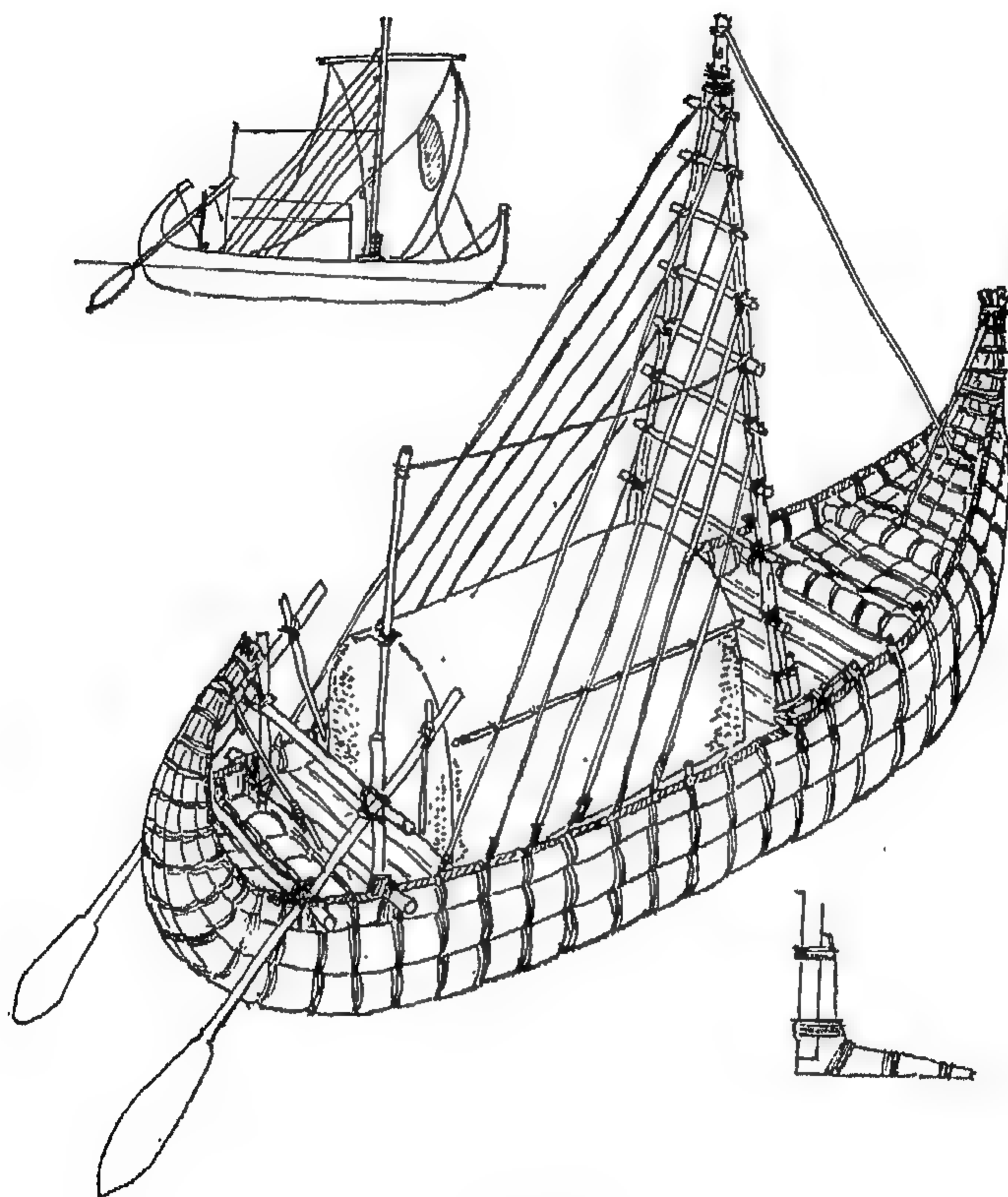
وأتتبع رحلته الأولى وقابى معه. وأنزعج لفشل رحلته الأولى، وأتتبع رحلته الثانية وقابى معه وأسعد بنجاحها خاصة وأن مصرياً شجاعاً كان على قائمة رجال بعثته وهو الجرىء المقدام: جورج سوريال الذى عاونه في الرحلتين.

وعند ما قال لى صديقى رجل العلم والعلوم « ميشيل تكللا » إنه فى سبيل إعداد كتاب بالعربية عن رحلة القارب ( ر ع ٢ ) وإن دار المعارف ستطبعه وتنشره وإنه يريد مقدمة له فجال قلمى بهذه السطور ، لا أحاول بها أو أبغى إلا لمحة صدق فى تاريخنا المشرق والذى أضواء للإنسان فى زمانه الماضى طريق الحضارة تحت مشعل الثقافة . . . ثقافة الفكر والفن والعلم والإيمان .

ك . الملاح

القاهرة : صيف ١٩٧٢





رسم کروکی للسفينة « رع »



## الباب الأول

### لغز واحد : ورأيان لا ثالث لهما . .

قصبة تعبت بها الرياح . . . . . نكسرها فتطفو على وجه المياه . . .  
وتتحمل ثقل ضفدع صغير . مائتا ألف قصبة داعبتها الريح . . . . . وحقل  
كامل منها كأعواد الحنطة الخضراء تموج على طول الشاطئ . . . . . نقطعها  
ونحزمها في حزم كأعواد القمح ، فتطفو الحزم على وجه المياه . فيصعد  
إليها روسي ، وأفريقي ، ومكسيكي ، ومصري ، وأمريكي ، وإيطالي ،  
وأنا نرويجي ، ومعنا قرد وعدد من الدجاج الصيَّاح ، في طريقنا إلى  
أمريكا . . . . .

نحن الآن في مصر . . . . . فوق رمالها الجحافة الساخنة أو فوق رمال  
الصحراء . . . . . يؤكد لي عبد الله أن أعواد البردى ستطفو ، وأنا سوف  
أكون في مأمن ، ونحن على أعواد البوص ما دامت الحبال ستحملنا . . . .  
ولكن هل تتحمل الحبال ؟

شعرت بإنسان يهزني من كتفي ليوقظني . وقال عبد الله : إن الساعة  
الآن الثالثة لنبدأ عملنا من جديد . وكانت الشمس حامية في داخل الخيام  
المصنوعة من الخيش . فقممت ونظرت من خلال فتحة في الباب ، وهبت  
على حرارة جافة ، وضوء قوى حارق من الشمس التي ألهمت متاهات

الرمال الذهبية تحت سماء الله الزرقاء الصافية الأديم . . .  
 وظهر صف الأهرامات . . . ثلاثة منها كالطود الشامخ ، وهرمان  
 صغيران كأنها أسنان سمك القرش في قوس السماء . . . وقد ظلت هكذا  
 لا تتحرك ، ولا تتغير منذ الوقت الذي كان فيه الرجال جزءاً من الطبيعة ،  
 فبنوها طبقاً لتعاليم الطبيعة . وأمامنا في المنخفض الضحل قبع شيء  
 لا عمر له ، بنى منذ عشرة آلاف سنة ، شيء في الرمال الصفراء على  
 هيئة قارب نوح احتجزته الصحراء بعيداً عن البحر وأواجه الصاخبة .



ثور هايردال يفحص نماذج من قوارب البردى المصرية القديمة المحفوظة  
 في المتحف المصري — القاهرة

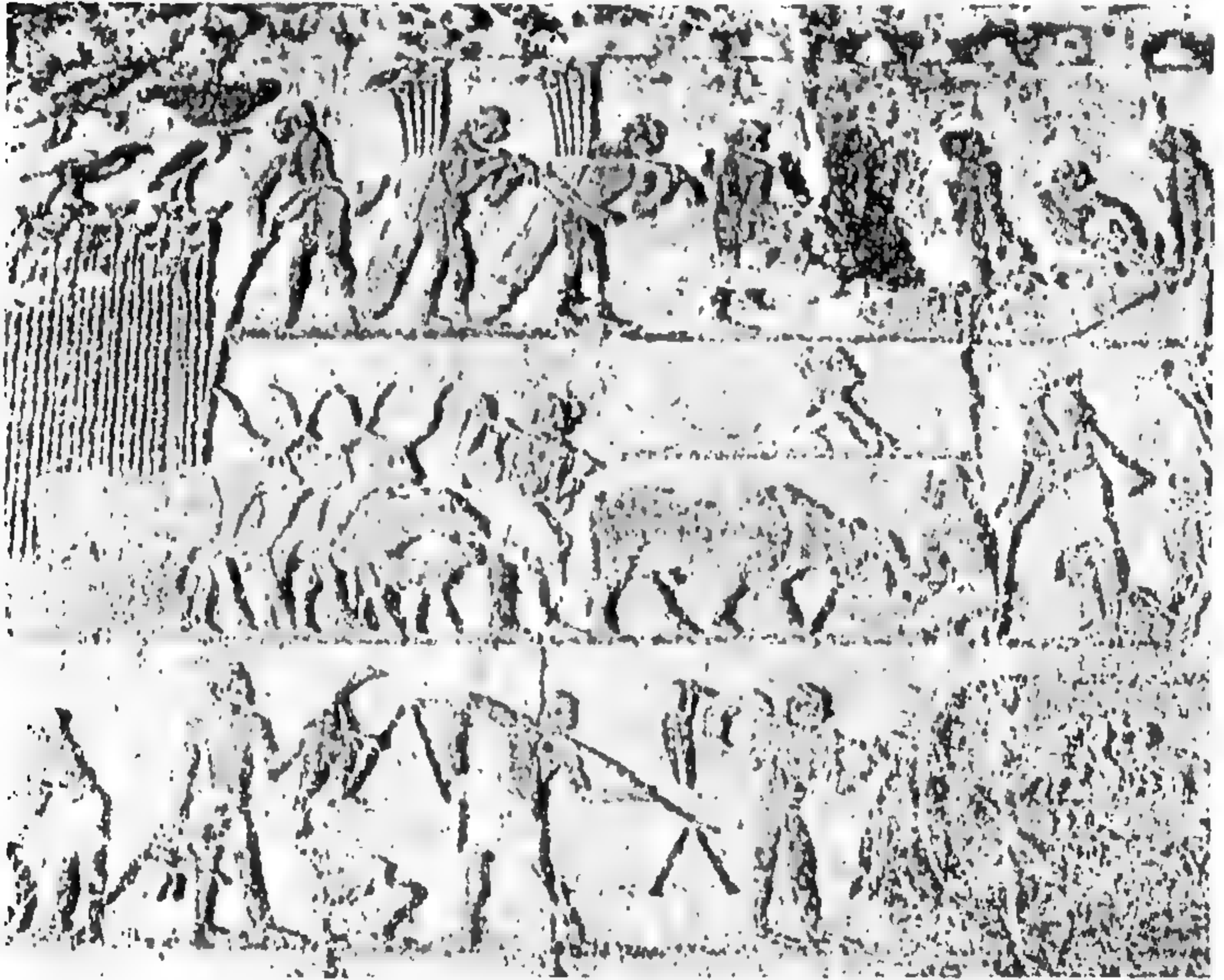


ووقف بجواره جملان يجتران أجزاء من القارب المصنوع من نبات البردى .  
فقد حزمت الأعواد الذهبية على هيئة قارب يتطلع إلى زرقة السماء كأنه  
هلال . . .

بدأ العمال يحزمون حزمًا من أعواد البردى ، وخرجت من الخيمة  
وكأننى نمت ألف سنة . فأنا صاحب فكرة إعادة بناء مثل هذه القوارب  
الورقية ، التى انصرف عن بنائها الملك خوفو وخلفاؤه ، وأمروا ببناء هذه  
الأهرامات التى بدت وكأنها سلسلة من الجبال الصلبة . . .

وجلس العمال يفتلون الجبال بأيديهم القوية ؛ وأسنانهم ، وأقدامهم  
العارية . ويبنون القارب من نبات البردى ، على غرار تلك القوارب  
المرسومة بأعداد هائلة على جدران غرف الدفن لبناء الأهرامات هنا فى  
الصحراء . وصادفتنا مشكلة : لا بد لهذا القارب من صار ننشر عليه  
الشراع . . . فعدت إلى الخيمة وأخرجت تصميمات القوارب المصرية  
القديمة ، فلم أر فيها أى أثر لمستمار ، ورأيت مسافة سميكة مسطحة  
نصب فوقها الصارى مشدوداً بالجبال ، بعد أن ثبت فى كتلة من الخشب  
القوى ، ربطت بالجبال أيضاً . وجلست أفكر فى خيمتى . فلم تكن  
لدى نظرية ثابتة عن المصريين القدماء ، وإذا كانوا حقيقة قد نقلوا  
حضارتهم إلى الجزر النائية أو القارات البعيدة . وكان هناك كثيرون ممن  
آمنوا بهذه الفكرة ، وأكدوا أن بناء الأهرامات نقلوا روحهم الثقافية إلى  
أمريكا الاستوائية قبل كولمبوس بأزمنة بعيدة . لم أكوّن لنفسى نظرية خاصة  
تؤكد ذلك الاعتقاد ، ولم أعثر على أى دليل مادى يؤكده أو ينفيه .

وشرعت أوازن بين حضارة مصر وحضارة المكسيك ، فرأيت هوة سحيقة  
بين الحضارتين أو التاريخين ، ورأيت كذلك فجوة من الماء أعرض من  
النيل بعشرة آلاف مرة . . .



المصريون القدماء يحزرون أعواد البردى لصناعة القوارب

كان المصريون القدماء يستخدمون قوارب مصنوعة من أعواد البردى ،  
ثم طوروها بقوارب مصنوعة من الخشب تنهادى على صفحة النيل . وعلى  
قيد خطوات من الخيمة كان صديقى أحمد يوسف يجمع قارباً خشبياً

من قوارب الملك خوفو . وقد اكتشف علماء الآثار أن قارباً خشبياً كبيراً دفن على كل جانب من جوانب هذا الحرم العظيم .

إذن فهناك أربعة قوارب منها حفظت بإحكام<sup>(١)</sup> والغريب أن قارب خوفو العظيم قد صمم بطريقة فذة نادرة ، وبخبرة مهندسين ، أو بناء صنعوه ليبحر في البحار المفتوحة بقدرة ونعومة يتحدى بها أعنى الأمواج . وبدأت أفكر مرة أخرى . إن المنظر الانسيابي للقوارب المصرية القديمة قد صممها المصريون القدماء ، أو نفس الجيل الذى اخترع الكتابة ، وبناء الأهرامات ، والتحنيط ، وجراحة المخ ، والفلك . أو ربما تدرب صناع هذه القوارب في الخارج ، في بعثات أمر بها الفرعون خوفو وحققها . ويبدو أن رأى الأخير هو الأكثر احتمالاً ، لأن خشب الأرز لا ينمو في مصر ، ومنه صنعت هذه المراكب القديمة . وأن اللبنانيين أو الفينقيين كانوا سادة صناعة القوارب التى مخروا بها عباب البحر الأبيض ، وأجزاء من المحيط الأطلنطى . وكان مينأؤهم بايبلوس أشهر ميناء أو مدينة في العالم القديم ، استوردت البردى من مصر . لأن المدينة كانت مركزاً للثقافة والكتب في العصور القديمة . ومن كلمة بايبلوس Byblos<sup>(٢)</sup> أو بايبل كان معنى الكتاب المقدس . وكانت هناك

---

( ١ ) والمؤلف يشير إلى مراكب الشمس التى اكتشفها الأثرى كمال الملاخ عام ١٩٥٤ التى يرجع تاريخها إلى ٦٠٠ سنة مضت . ( المترجم )

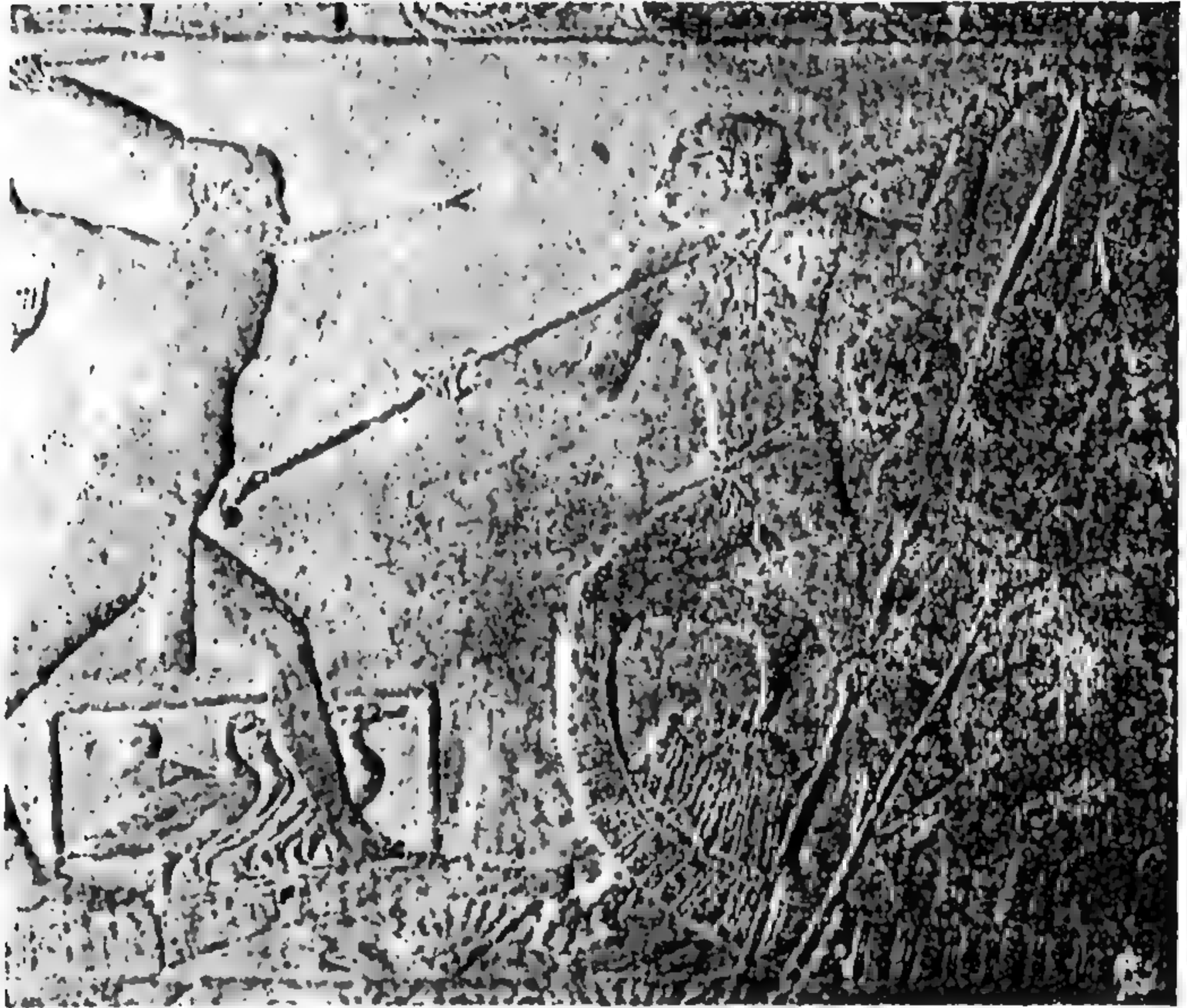
( ٢ ) هى ميناء « جيل » اللبناني ، شمالى بيروت ، وكانت على علاقة تجارية مع مصر الفرعونية . ( الناشر )



الإبحار بقوارب البردى في النيل حيث كانت أقفاص  
الطيور. وسلاسل الطعام وأواني الماء تنقل من مكان لآخر

تجارة بين مصر و بابلوس في الوقت الذي بنى فيه هرم خوفو . وربما  
قلد بناء القوارب في مصر سفن الفينقيين . . . من يدري ؟ ولكن الغريب  
أن قوارب خوفو كانت مصممة على هيئة زهرة نبات البردى المفتحة ،  
ترتفع مقدمتها ودفعتها إلى أعلى بدرجة أكثر من سفن القايكنج The Vikings  
وذلك للإقلاع بها في أعالي البحار . وليس للنزهة بها فوق صفحة  
النيل . . . وكان مركب البردى هو النموذج الذي أخذت عنه نماذج  
المراكب الخشبية وليس العكس . . .





قارب مصرى قديم من نبات البردى وعليه نجارته

ولكى نبني قارباً كقوارب قدماء المصريين في الوقت الذي نهضت فيه حضارة البحر الأبيض على قدميها وعلى ضفاف نهر النيل ، لم تكن في حاجة إلى مهارة نجار أو بلطة بل إلى سكين تقطع بها أعواد البردى وإلى بعض الحبال . وهذا ما كان يفعله كل من أصدقائي موسى وعمر وعبد الله هناك عند سفح أهرامات خوفو وخفرع ومنقرع . . . كانوا

يبنون قارباً من نبات البردى . تماماً كالقوارب المنقوشة على حوائط المدافن  
التي تحيط بنا . . .

إذن فما الذى كنت أريد أن أحققه ؟ كنت أريد أن أحقق بناء  
قارب يتحمل السفر فى البحار ، وأثبت أن المصريين القدماء كانوا من  
أمهر بحارة العالم قبل أن يستقر بهم المقام ليقيموا التماثيل والبنائيات التي  
تتحدى الزمن . . . واتجهت نحو ذلك القارب الذى قطع الرحلة بين  
مصر ولبنان أو المسافة التي لا تزيد عن مائتين وخمسين ميلاً . . .  
وكنيت أريد أن أعرف إذا كان قارب من البردى يستطيع أن يتجاوز  
هذه المسافة إلى ما وراء القارات . . . وأخيراً أردت أن أعرف إذا كان  
قارب من البردى يستطيع أن يتحمل الرحلة إلى أمريكا .

قد تسأل : لماذا كل هذا ؟ لأنه لا يوجد إنسان يعرف من الذى  
وصل أولاً إلى أمريكا ؟ هل هو كولمبوس ؟ إنه لم يكتشف أمريكا بل أعاد  
اكتشافها . . . كان كولمبوس رجلاً ذكياً شجاعاً عرف فى قرارة نفسه  
أن الأرض كروية ، وأنه لن يصطدم بخافة العالم . فأقدم على رحلته إلى  
عالم المجهول . . . إنه يمثل نقطة التحول فى التاريخ ، لأنه غيّر طريقة  
الحياة فى العالم كله . ولكنه لم يكتشف أمريكا بل كان أول إنسان كشف  
الطريق إلى أمريكا للعالم كله . . . ووصلها فى عام ١٤٩٢ ميلادية .  
إذن ففى اكتشاف أمريكا ؟ لا أحد يعلم . إن أول إنسان اكتشف  
أمريكا لم يحسب الوقت أو يعرف التاريخ بالضبط . ولم يعرف الكتابة  
أو أنه وصل إلى قارة جديدة . . . كل ما فى الأمر أن الرجل البدائي جال

السواحل المتجمدة لسيبيريا . وذات يوم وجد نفسه على الساحل الشرقى لمضيق بيرنج Bering Strait الثلجى . وهو لا يشك أن الوحوش الضارية سبقتها إليها . . . . . ولسنا نعرف على وجه التحقيق أن الذى اكتشف أمريكا جاءها سائراً على المياه المتجمدة ، أو فى قارب على طول الشواطئ العارية للتندورة . وكل ما نعرفه أن أول إنسان مات فى الأرض الأمريكية ولد أصلاً فى دائرة القطب الشمالى الآسيوية . وأن مكتشف أمريكا كان لا يعرف الزراعة أو المعمار أو المعادن أو الغزل . وأنه كان يتدثر بجلود الحيوان وأن عدده وآلاته كانت الحجارة والعظام ، لأنه كان من رجال العصر الحجري . ويقول العلماء إن الذين جاءوا إلى أمريكا استوطنوها منذ خمسة عشر ألف سنة قبل الميلاد من الشمال القطبى . وأن هؤلاء الغزاة الأوائل انحدرت من أصلا بهم المجموعات المتباينة من الهنود الأمريكيين . ولقد كشفت الكشوف الحديثة أن العائلات البدائية ارتحلت ذهاباً وإياباً بين سيبيريا وألاسكا . وفى داخل أمريكا من ألاسكا فى الشمال إلى « تييردل فيجو » Tierradel Fuego فى الجنوب . استقر المقام بهؤلاء الرواد فى أكواخ من أغصان الأشجار ، وفى الكهوف ، ثم توزعت هذه العائلات توزيعاً جغرافياً نحو الجنوب وتكونت أمريكا . وفى يوم ١٢ أكتوبر عام ١٤٩٢ هبط كولبوس على سان سالبادور فى جزر الهند الغربية<sup>(١)</sup> ، ثم اتخذ طريق سلفه من المغامرين أمثال كورتيز Cortès وبيزارو Pizarro من الغزاة الإسبانيين . وهناك كانت فى انتظاره حضارات

( ١ ) وهى إحدى جزرهما فى الشمال الغربى .

غير أوربية ، وشعوب مختلفة عن شعوب أوربا . و وراء الجزر التي نزل إليها كانت هناك ثقافات ممتازة أيضاً . وقال الشيوخ لكولبس ورجاله إن أقواماً جلودهم بيضاء سبى أن هبطوا عليهم وجاءوا معهم بأسرار الحضارات القديمة . ولم يحدث وصول الإسبان أى دهشة فى المكسيك أو بيرو . وأصبح من المؤكد أن هذا الجزء من أمريكا لم تسكنه قبائل الصيادين الذين جاءوا من سيبيريا ، بل سكنته قبائل من الرجال المثقفين الذين درسوا التاريخ ، وألفوا الكتب ، وبرعوا فى العلوم الطبية . واستطاع علماءهم من رجال الفلك ، أن يرصدوا حركات الأجسام السماوية بدقة متناهية ، ويحسبوا مراكز خط الاستواء ، ويميزوا بين النجوم الثابتة والكواكب . وكان تقويمهم أضبط وأدق من تقويم أوربا فى عصر كولبس ، وحددوا سنة المايا Mayan Year رقم صفر بالسنة ٣١١٣ قبل الميلاد . وكانوا — مثل قدماء المصريين — يجيدون عمليات التربة أو جراحة الجماجم بدون أن يقتلوا المريض ، وكانت هذه الجراحة غير معروفة للجراحى أوربا حتى بعد عصر كولبس بكثير . . . .

اختلط الأمر على الإسبان عند غزوهم لهذه البلاد ، بل لقد فقدوا أعصابهم ، وظنوا أنهم وصلوا إلى بعض الحضارات الممتازة للهند البعيدة . ولصقت كلمة الهند التى أطلقها الإسبان على سكان تلك البلاد باللغات الأوربية وهى إحدى أخطاء الإسبان . . . .

وفى جنوب أمريكا ازدهرت حضارة مماثلة هى حضارة الإنكا Inkas وقد غزا هذه البلاد حفنة من الإسبان بدون أن يطلقوا رصاصة واحدة ، لأن



تعاليم تلك القبائل القديمة كانت تتوقع دائماً قدوم البيض ذوى اللحى الطويلة ، من وراء البحار ، لأن أجدادهم جاعوا بالحضارة فى الأزمنة البعيدة ووعدوا بأن يعودوا . هكذا سجلت كتبهم أو تعاليمهم المحفوظة عن ظهر قلب أباً عن جد وكابراً عن كابر . . .

وراودنى سؤال : ما الذى حدث فعلاً فى المكسيك وبيرو قبل أن يذهب كولمبس وأصحابه إلى أمريكا ؟ وهل بذر رجال العصر الحجري البذور التى عثر عليها الإسبان فيما بعد ؟ أم أن أبناءه وأحفاده وقفوا على الشاطئ يستقبلون بعض المغامرين ؛ الذين جاءوا إليهم عبر الأطلنطى بدون تذاكر عودة ، قبل أن تنتشر الحضارة فى أفريقيا وآسيا ، ثم إلى سواحل أوربا البربرية . والرد الصحيح على سؤالى الحائر هذا هو : إذا كانت الحضارة قد بدأت فجأة بدون تطور محلى ، فلا بد أنها استوردت بطريقة ما من وراء البحار . ولكن المشكلة الوحيدة هى أن الحضارة العظيمة التى بدأت تزدهر فى العالم الجديد ، قبل السيد المسيح بعدة قرون ، مر عليها ألفان من السنين . بعد أن توقفت الثقافات أو ماتت تماماً فى المناطق الهامة من العالم القديم . كما كان الحال فى مصر مثلاً . وعليه فإن الرد على هذا السؤال ليس بديهياً على الإطلاق . . .

إذن لماذا نبى قارباً من أعواد البردى ؟ لقد زرت مصر مرات كسائح عند ما وقع نظرى على قوارب البوص مرسومة على جدران وادى الملوك . وميزت القارب فى 'الحال الذى كان يشبه النوع العام لقوارب بناء الأهرامات فى شمال بيرو ، التى رسموها على أوانيهم الفخارية عند ما

ازدهرت الحضارة في جنوب أمريكا . كما رأيت مثل هذه التواب في المحيط الباسيفيكي في جزيرة إيستر Easter على جدران قرية أورونجو Orongo فهذه المتوازيات الثلاثة جزيرة إيستر وبيرو ومصر لا يمكن أن تكون كل واحدة منها قد بلغت نفس الحضارة المستقلة . ولعل الأغرب أن سكان جزيرة إيستر كانوا يطلقون اسم « رع » على الشمس ، وعليه لا يمكن أن يكون ذلك مصادفة لأن رع كان اسم الشمس في مصر القديمة . وفي جزيرة إيستر وبيرو ومصر كانت تقام التماثيل الضخمة تشریفًا وتحية لآله الشمس . فهل كان هناك اتصال بين هذه الأطراف أو كان الأمر مجرد مصادفة ؟ . . .

منذ قرون مضت عند ما سيطرت السفن على البحار أصبحنا نؤمن بأن الشعوب القديمة المتحضرة كانت تتحرك بدون قيود . فالرحالة ماجلان Magellan وكابتن كوك Captain Cook وغيرهما قد دارا حول الأرض أكثر من مرة . فلم لا تكون هذه الشعوب قد طافت حول الأرض على قوارب أو سفن من أى نوع كانت . ونحن في هذا العصر الذى اخترعت فيه الانفثات والمحركات القوية أصبحنا نؤمن بأن العالم في العصور القديمة كان كبيراً وكبيراً بعد أن أصبح الآن صغيراً وصغيراً .

لاحظ العالم اليريطانى « بيرسى سميث » Percy Smith أن الحضارات القديمة للمكسيك وبيرو تتشابه كثيراً مع حضارة قدماء المصريين ، وأن اتصالاً عبر المحيط قد كان بين الشعبين . وعندما عثر على نفس التشابه في جزيرة إيستر وبعض أجزاء في بيرو ، رسم خطاً من



قارب مصنوع من نبات البردى ينطلق به صيادان من مكان جزيرة إيستر





مصر عن طريق البحر الأحمر والمحيطين الهندي والباسيفيكي ، وعلى طول الطريق إلى بولينيزيا Polynesia وجنوب أمريكا . وعن هذا الطريق أو الخط ، كما قال ، وصل عابدو الشمس إلى أمريكا عن طريق جزيرة إيستر . . . .

وهز بعضهم رءوسهم وقالوا إن الرحلة من مصر إلى جزيرة إيستر لا معنى لها — برغم أن جزيرة إيستر أقرب إلى مصر عن طريق أمريكا ، منها عن طريق الهند . فإذا أبحر المصريون القدماء ٢٥٠٠ ميل نحو الشرق لوصلوا إلى الهند عابرين نصف العالم إلى جزيرة إيستر . . . . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إذا كان الأمريكيون الجنوبيون القدماء قد أبحروا ٢٥٠٠ ميل غرباً من سواحلهم لعبروا جزيرة إيستر كما فعلنا في رحلتنا عبر الباسيفيكي حيث قطعنا ٤٣٠٠ ميل من ساحل أمريكا الجنوبية مارين بجزيرة إيستر في نصف رحلتنا . . . . هذه الجزيرة التي استعمرها الإنسان من قديم الزمان ، تقع على بعد نحو ألفي ميل غرب شيلي ، اكتشفها الأوروبيون في عام ١٧٢٢ وقد سميت بهذا الاسم لأن الهولندي الذي اكتشفها وصلها يوم عيد الفصح وسمّاها البيولينيزيون « صرة العالم » لأنهم هبطوا إليها من قوارب كبيرة ووجدوا بها ملاحين ، وقد حفروا قوارب ضخمة من البوص ، وعليها صواري على جدران الجزيرة . وعلى هذه القوارب رجال لهم زعوس كزعوس الطير ، وهي نفس الرموز التي وجدت في بيرو ومصر لعبادة الإله رع إله الشمس .

عند ما خطر ببال قوارب البوص في جزيرة إيستر فكرت في بناء رحلات رع

قارب من أعواد البردى . وكنت قد رأيت قوارب من هذا النوع قبل أن أزور الجزيرة . بل لقد استخدمتها في بحيرة تيتيكاكا Titicaca Lake في مرتفعات الأنديز Andes ، عند ما كنت هناك أدرس حضارة أمريكا الجنوبية الحجرية . وتعجبت من قدرة هذه القوارب على حمل الكثير من الأثقال والتي تستخدم بوفرة لعبور الأحمال عبر البحيرة إلى أطلال مدينة تياهواناكو Tiahoanaco . وككل إنسان قرأ تاريخ إمبراطورية إنكا عرفت أن هذه القوارب كانت الأثر الباقي لوسائل النقل المائية قبل وصول كولمبس إلى أمريكا . وقد عم استخدامها على طول الساحل الباسيفيكي لبيرو عند ما هبط الأسبان عليها . وأصغر هذه القوارب كان على هيئة خرطوم الفيل لا يتحمل غير ثقل رجل واحد وكان بعضها يربط إلى بعض لثقل الماشية والحيول . . .



قوارب من البردى حيث يصنعها الصيادون في بحيرة تيتيكاكا

## الباب الثانى

### قارب من نبات البردى

فى جزيرة إيستر شاهدت قاربًا من تلك القوارب القديمة المصنوعة من أعواد البوص ، وهى تندفع فوق الأمواج وعليها أربعة من كبار الصيادين ، وتنزلق بسرعة لا تعبأ بالريح . ولاحظت شبهةً كبيراً بينها وبين القوارب التى رأيتها تمخر عباب بحيرة تيتيكاكا وشبهةً أكبر بقوارب حضارة الإنكا القديمة ، التى نقشتها شعوب موشىكا Mochica القديمة على أوانىهم الفخارية السيراميك على الساحل الباسيفيكي لجنوب أمريكا... .

لجزيرة إيستر تاريخ مشير ، فهذه الجزيرة التى وجدها الأوروبيون عارية عاقراً يعيش فيها بعض المتوحشين على البطاطا ، وقد هجروا معابدها وتمثيلها الضخمة ، التى أقيمت فى أمكنة متفرقة . وكانت فى الأصل غابة من الغابات غطت جدران البركان الحامد الذى يظهر عليها الآن . . . .

وفى هذه البقعة الخضراء وسط أمواج المحيط الزرقاء هبط على الجزيرة بناءون مهرة قبل أن يعرف الأوروبيون المحيط الباسيفيكي بأزمة سحيقة . وأشعل هؤلاء البناءون النار فى الغابة فهطلت ذرات السناج والدخان على البحيرات الموجودة فى البركان الحامل ، ونسبت فى القاع مع لقاح أشجار النخيل والغابة . وكان الغرض من حرق الغابة إنبات حقول من البطاطا

أ. كولم الرئيسي . وكذلك لبناء منازلهم الصخرية . ومعابدهم ذات الدرجات التي تشبه مباني بيرو القديمة ومصاطب مصر . وتجاهل البناءون الأشجار التي سقطت . وانصرفوا عنها ، لأن فنهم كان مقتصرًا على الحجر وليس على الخشب . وكانت أحجام الأحجار التي يقطعونها كبيرة في حجم عربة سلك حديدية . وكانت تنقل من طرف الجزيرة إلى طرفها الآخر ، وهي مرفوعة على نهايتها . . . والغريب أن العلماء وفقوا إلى اكتشاف هام ، وهو أن الرواد الأوائل لهذه الجزيرة أحلوا محل النباتات والغابات التي أبادوها ، نباتات مزروعة جلبت بذورها من وراء المحيط . فالبطاطا الأمريكية جاءت إلى الجزيرة وما جاورها من جزر بولينيزيا من بيرو قبل أن يصل كولمبس إلى أمريكا . . . كما نمت أعواد البوص أو « بوص توتورا Totorá » أو حصيرة من هذا النبات فوق سطح بحيرة البركان الحامدة وقد استخدمها أهالي بيرو في صناعة القوارب الصغيرة والكبيرة على السواء وكذلك في تسقيف بيوتهم وفي صناعة الحبال . . .

وفي شهر يناير عام ١٩٦٦ أعلن أحد علماء التاريخ الطبيعي للأجناس البشرية بجامعة كاليفورنيا أن قوارب البوص في بيرو القديمة تشبه قوارب البردي لمصر القديمة ، وأن الحضارتين القديمتين متشابهتان في أكثر من وجه برغم اختلاف طبيعتين . فنفس الحضارة التي وجدت في مصر وشرق البحر المتوسط وجدت أيضًا في بيرو . وإذا كانت مصر في أفريقيا وبيرو في أمريكا فمعى هذا أن محيطًا واحدًا كان يفصل بين القارتين هو المحيط الأطلسي . واستخدمت الحضارتان قوارب ورقية أى من أعواد

البردى أو البوص . ولكن هل يستطيع قارب من هذا النوع أن يمتخر  
عباب المحيط الذى يفصل بين القارتين ؟ واحتدم الصراع بين المفكرين . . .  
فإذا كانت المكسيك وييرو قد حصلتا على حضارة من وراء البحر فأى  
بحر يكون وعن طريق أى مراكب أو سفن ؟ ولم يستطع واحد من هؤلاء  
المفكرين أن يمدنا بالرأى السليم ، أو الرد الصحيح . وازداد الصراع حدة  
عند ما استقر الرأى فى النهاية على أن المحيط الأطلنطى لم يعبره إنسان



قارب من البردى حيث يكثر استعماله فى المكسيك



قبل كولبس . ولكن تاريخ الثايكنج لا ينكر أن النرويجيين كانوا أول من وصلوا إلى آيسلاند ، ثم إلى الساحل الجنوبي الغربي لجرينلاند حيث عاشوا زهاء خمسة قرون قبل أن يعبر كولبس المحيط إلى أمريكا . . . .

وقد تركوا وراءهم أطلالا من المزارع والمدافن والكنائس . وكانت مستعمرة جرينلاند تدفع الضرائب إلى ملك النرويج . إن المسافة عبر شمالى الأطلنطى من النرويج إلى جرينلاند ، كانت مساوية للمسافة بين جنوبى الأطلنطى من أفريقيا إلى البرازيل . وكانت المسافة بين جرينلاند وأراضى أمريكا لا تزيد على مائتى ميل . ويقول بعض المفكرين إن أحدا لم يفكر فى قطع هذه المسافة القصيرة على الإطلاق ، ولكن كتابات الثايكنج ذكرت عكس ذلك ، فالرحالة « بچارز. هرچولفسون » Bjarni Herjolfsson كان أول من عبر الأطلنطى . ولكن سفينته اختفت فى الضباب . وبدلا من أن يهبط على الساحل الطويل غير المعروف الذى اكتشفه عاد إلى جرينلاند واشترى سفينته فيما بعد « ليف إيركسون » Leif Ericsson الذى أبحر فى عام ١٠٠٢ مع خمسة وثلاثين من رجاله حيث كانوا أول من وضعوا أقدامهم على الشاطئ فى مكان أطلقوا عليه اسم ، فينلاند vinland . وهناك أقاموا بعض البيوت ، وقضوا الشتاء قبل أن يعودوا إلى جرينلاند . وفى عام ١٠٠٣ قام أخوه « ثورفالد » Thorvald بنفس الرحلة ، وبعد عامين قتل بسهم أطلقه عليه أحد المواطنين . فدفنه الرجال فى فينلاند وعادوا إلى جرينلاند . تبعت ذلك عدة محاولات لاستيطان فينلاند ، لكن غارات الهنود المتكررة أجبرتهم على العودة إلى

جرينلاندا ومنها إلى أوربا كما ذكرت سجلات القايكنج .  
ولكن أين فينلاندا هذه وما هو الدليل على أنها توجد في أرض  
أمريكية ؟

في أقصى الطرف الشمالى « لنيوفاوندا لاند » وجدت آثار للقايكنج  
الذين حاولوا استيطان المنطقة في حوالى عام ١٠٠٠ بعد الميلاد . وكانت  
هذه الآثار لبيوت تناثرت حولها قطع الأخشاب المحروقة . . . ووجدت  
في الأبواب مسامير حديدية ، وعجلة لغزل المنسوجات الصوفية .  
وكان هنود هذه المنطقة لا يعرفون الحديد أو الغزل . وقد قام بهذه  
الاكتشافات العالم النرويجى « هالج انجستاد » Helg Ingstad . وبذلك  
أثبت بالدليل القاطع وصول القايكنج إلى هذه المنطقة البعيدة في  
نيوفاوندا لاند ، وأنهم وصلوا إلى أمريكا بعد عبورهم المحيط الأطلنطى ،  
وسجلوا هذا الوصول قبل أى إنسان آخر . . . وبرغم أن أقدامهم لم ترسخ  
في أمريكا إلا أنهم وصلوها من الشمال المتجمد قبل أن يعبر كولمبس  
خطوط الطول الاستوائية .

ولكن عبور المحيط كان يحتاج إلى سفن قوية . وإذا كان إنسان قد  
جاء من أفريقيا ، ورسخت قدمه في أمريكا ، فمن المؤكد أن هذا الإنسان  
قد علم الهنود كيف يبنون بيوتهم من قوالب الطوب ، وكيف يكتبون على  
الورق . ثم كيف يبنون السفن التى تمخر عباب المحيطات والبحار المفتوحة .  
وما كان بحار يستطيع أن يعبر الأطلنطى ومعه المهندسون المعماريون  
والفلكيون الذين يستطيعون بناء الأهرامات من غير أن يحضر معه بعض

بناء السفن والمراكب . وقبل السيد المسيح بألفين وسبعمائة سنة تعلم المصريون كيف يبنون المراكب الخشبية ذات الهياكل المفرغة والأسطح والكبائن ذات الألواح الخشبية الأنيقة المرتبة . ولكن فكرة بناء هياكل المراكب من الألواح الخشبية لم تصل إلى الهنود إطلاقاً . وفي جميع أجزاء أمريكا ، قبل كولمبس ، لم يتعلم أى إنسان أن يبنى المراكب إلا من أعواد البوص . وكانت هذه حقيقة لا يمكن تجاهلها بأى حال من الأحوال . كل ما كانت تمتلكه أمريكا في ذلك الوقت سفن ، أو قوارب من البوص ، أو قوارب من جذوع الشجر ، لأن نبات البوص أو البردى لم ينم في مصر وحدها بل في أجزاء متفرقة من العالم .

قامت بزيارة أخرى إلى الأنديز لألقى نظرة ثانية على قوارب الهنود ، وطرت فوق بحيرة تيتيكاكا فوق سقف العالم والتي ترتفع ١٢٥٠٠ قدم فوق مستوى البحر ، تحيطها كوكبة من القمم الثلجية ترتفع بدورها إلى تسعة آلاف قدم نحو السماء الزرقاء . وفوق الهضبة من خلفنا تطل أطلال عاصمة الإنكا القديمة مركز الثقافة القديمة مدينة تياهوواناكو وهرم « أكابانا » Akapana والتماثيل الضخمة للملك غير معروفين محفورة في الصخور . . . .

وفي الريح الشديدة كان بعض هنود الأيمارا Aymara يروحون ويجيئون بقواربهم ، وهم يصطادون السمك . وعلى البعد كان الإنسان يرى أشعة القوارب وقد ملأها الهواء ، وقد بنيت القوارب بدقة متناهية ، فكانت

تنزلق على الماء بسرعة وترسو على الطين ، ويخرج منها الصيادون ومعهم ما اصطادوه من السمك . . .

ومثل هذه القوارب لا تزال تبني بالمثلثات وبنفس الطريقة التي كان يبنى بها أجداد هنود الآيمارا ، والكوشوا Quechua قواربهم القديمة منذ أربعمئة عام ، عند ما جاء الأسبان وعثروا على أطلال تياهواناكو بأهراماتها المدرجة . وكان البدائيون من الهنود يظنون أنها وجدت هكذا منذ فجر التاريخ بعد أن بناها رجال الفيرا كوشا Viracocha . وقد وصفهم المؤرخون على أنهم رجال بيض بلحي ، وكان ملكهم يدعى كون تيكى فيرا كوشا Cion-Tiki-viracocha « رسول الشمس على الأرض . وكان رجال الفيرا كوشا قد استقر بهم المقام على جزيرة الشمس في بحيرة تيتيكاكا . وتقول الأساطير إنهم أول من بنى أول قارب من البوص ، وأن الرجال البيض جاءوا إلى الجزيرة على قوارب من البردى عند ما ظهروا لأول مرة أمام الهنود ، الذين كانوا في ذلك الوقت لا يعرفون شيئاً عن عبادة الشمس ويجهلون الزراعة والعمارة . فهذه الأساطير التي كتبها الأسبان منذ أربعة قرون لا تزال حية في أذهان الهنود . وفي كثير من الأحيان كانوا ينادونني باسم « فيرا كوشا » ومغناها « الرجل الأبيض » .

لقد أعجبت كثيراً بمنظر هذه القوارب وهي تتهاذى فوق صفحة البحيرة ، وتذكرت الزمن الذي كانت تنقل فيه كتل الصخور من « الكابيا Kapia » البركان الحامد على الشاطئ الآخر . ولم يكن هناك ما يدعو إلى الشك بأن الحضارة التي اختفت كانت متصلة بطريقة ما

بمراكز الثقافة الأمريكية الأخرى ، والتي وجدها المكتشفون الأمريكيون مهجورة مندثرة في الغابات الاستوائية ، من المكسيك إلى الهضبة المحصورة بين بيرو وبوليفيا . وقبل أن تتحول بنايات تياهواناكو إلى أطلال كانت عاصمة لأقوى إمبراطورية في العالم امتد نفوذها إلى بيرو والأجزاء المجاورة لأكوادور وبوليفيا وشيلي والبرازيل والأرجنتين ، أى على طول ساحل يمتد إلى ١٥٠٠ ميل في جزر جالاپاجوس Galapagos على بعد ستمائة ميل من الشاطئ . وقد أقنعتني الآثار التي وجدت في جزيرة إيستر أن الحضارة بلغت قبل العصر البوليني .

ولكن أين كانت الجذور ؟ هل كانت هنا في أمريكا ؟ أو في الجانب الآخر من الأطلنطي ؟ الحقيقة أن السفن الخشبية كانت معروفة في جانب واحد من الأطلنطي . ولكن قوارب البردى أو البوص كانت معروفة على الجانبين . . . . وكان فن بناء هذه القوارب موروثًا ، من مصر وبيرو . وليس ذلك فقط ، فقد رأيت قوارب مماثلة في المكسيك ، وفي جزر البحر الأبيض المتوسط ، وعلى ساحل الأطلنطي ، في المغرب تحت جبل طارق . وكانت القفزة من المغرب إلى المكسيك غريبة تمامًا كالمسافة بين مصر وبيرو . . . .

لذلك قررت بناء قارب من البردى



## الباب الثالث

### مع هنود غابات « الصبّار »

لمحت الشاطئ من بعيد ، وأنا أطل برأسي من وراء أشجار الصبّار ،  
التي ارتفعت من فوق ، كأنها أنابيب أرغن ، وتشعبت أغصانها في عالم  
كله أشجار . ومع ذلك فقد كانت الأرض التي أسير عليها رملية جرداء ،  
ليس بها عشب أو زهور ، غير تلك التي تطل علينا من العناقيد المتدلّية  
من أوراق الصبار ذاتها . . .

كانت الغابة التي دلفت إليها صامتة . لا همس ولا حفيف من  
الأشجار التي تناثرت هنا وهناك . وفجأة قفز أرنب جبلي من بين ظلال  
أشجار الصبّار التي عكستها أشعة الشمس الغاربة ، ثم رفع الأرنب  
أذنيه ، ونظر حوله قبل أن يختفي تمامًا . وعلى الممر نفسه الذي اختفى  
عنده الأرنب ، ظهر سنجاب مخطط وهو يجري بأقصى سرعته ، ثم  
توقف فجأة ، ورفع ذيله في الهواء ، ثم تكور واختفى بدوره بين أشجار  
الغابة . وعلى غصن شجرة جلس نسر لا يبدى أية حركة ، حتى اقتربت  
من شجرته ، فنشر جناحيه وطار بنغومة في الهواء وحلق فوق الغابة . وعند ما  
نقلت قدمي سمعت صوت حدائي وأنا أشق طريقى في الغابة المزدحمة  
بالقوارض والثعابين وحشرات الصحراء المختلفة .

وفي هذا المدوّء المطبق التقطت أذناى صوتاً فاتراً واهياً ، ولكنه  
طنّ كأنه صوت أسد يزأر . وكان هذا إنذاراً بوجود خطر قريب منى . . .  
وليس الإنسان فى حاجة إلى أن يرى حية من ذات الأجراس لكى يقفز جانباً  
ويفر من موت محقق . . . لقد أخرجت الحية لسانها والتهبت عيناها ،  
وارتفع ذنبها قليلا وهى تضرب به الأرض على أهبة أن تضرب ضربتها  
المميتة القاتلة . وكانت الحراشيف الجافة كأنها قطع من البلاستيك ترتعش  
من الغضب . فنظرت حولى بسرعة أبحت عن عصا ، ولكنى لم أر شيئا  
غير أشجار الصبار ذات الأشواك القوية ، وأخيراً لميت شجرة صبار  
ميتة فقات فى نفسى : « فى هذه الكفاية » . فانتزعت غصنا قويا  
وانهالت به على الحية فأصبت منها مقتلا وظل جسدّها يرتعش ويدق  
أجراساً لمدة طويلة . كان المفروض أننا نبحث عن بناء القوارب فى غابة  
الصبار هذه . ولم يكن أمامنا شجرة واحدة نستطيع أن نتسلقها لنعرف  
معالم الطريق الذى يجب أن نسلكه . وكان صديقى المكسيكى « رامون  
برافو Ramon Bravo قد اختفى فى الغابة على أمل أن يجد منها مخرجا . فى حين  
جلست زوجته أنجليكا Angelika فى العربة فى بطن الوادى ، حيث فقدنا  
معالم الطريق أكثر من عشرين مرة . . . ومن مكانى الذى وقفت فيه لمحت  
الشاطئ والبحر وانعكاس ضوء الشمس على صفحة الماء ، والجبال الزرقاء  
البعيدة ، وكان فى هذا الكفاية لنبدأ رحلتنا قبل مغيب الشمس . . .  
وشرعنا نسير ، وفجأة دلفنا إلى أرض فسيحة ، وظهر البحر أمامنا  
بأواجهه الفضية وشاطئه الذهبى ، ولحنا ظهور خمسة حيتان وهى تبرز من

الماء وتتجه نحونا، ثم تختفي في خليج كاليفورنيا . وعلى الجانبين امتدت صحراء سونورا Sonora . وكان علينا أن نعر على كوخ واحد به أثر للحياة . . . . وطال بنا السير حتى ظهرت من بعيد إحدى القرى الهندية بمجرد أن غرق قرص الشمس في الأفق البعيد وراء الجبال الزرقاء . وكانت القرية الهندية من سلالة قبائل « سريس » Seris القوية التي عرفت الزراعة والعمارة عن طريق اتصال رجالها بالرجال البيض . . . . وكان سكانها لا يزيدون على ستين فرداً ، وقد استقر بهم المقام في هذا المنعزل الرملي لبونتا شوكا Punta chueca . لم يبد الهنود أى اهتمام بنا ، بل انصرف كل واحد إلى عمله ، وقد جالسوا في مجموعات صغيرة . واقترب منا أطفال القرية وسرعان ما اندفعوا نحو كوخ لينادوا على شوكو المترجم صديق رامون الذى جاء إلى هذه القرية مرة ليصور بعض حيوانات الخليج . وأخبرهم رامون أنه جاء بصديق ليرى بعض قوارب البوص (١) . . . . ولكن الهنود كانوا قد أبطلوا صناعة هذه القوارب منذ سنوات . . . .

وجاء الليل فاضطررنا أن ننام على الأرض في حظيرة الصيد ، ومن حولنا الهنود يتسامرون طول الوقت حتى داعب الكرى أجفانهم فناموا عند ما اختفت النجوم من السماء . وفي الصباح استيقظنا من نومنا ، وأخذنا نساوم الهنود على صناعة قارب من البردى ، ولكنهم قالوا إن الأمر يحتاج إلى وقت طويل ، والبردى على مسافة بعيدة من مكانهم في جزيرة القروش .

---

( ١ ) يقصد البردى .

وقررنا الذهاب إلى جزيرة القروش لنرى نوع البردى الذى ينمو فيها . . . وبعد مرور بعض الوقت هبطنا إلى الجزيرة المزدهمة بالأياثل ، والغرلان ، والأرانب ، والسحالى ، والثعابين والقوارض . ولكن الإنسان لم يسكنها منذ تركتها قبائل « السريس » Seris إلى داخل البلاد . وسرنا مسافة طويلة فوق الجزيرة نبحث عن البحيرة التى ينمو عندها نبات البردى ، حتى اقتربنا من الجبال التى تحيط بها . وعبر نصف النهار ، والشمس محرقة ، وبدأنا نصعد مرتفعاً ، حتى بلغنا قمته فوقفنا نلهث وننظر إلى ما تحتنا . وعلى مسافة من مكاننا رأينا منظرًا غريبًا . بحيرة ممتلئة بالماء ، وحولها نبات البردى ، سامقًا بأعواده فى الهواء فأسرعنا ، نجرى نحو الماء ، لكننا لم نر غير أعواد البردى ، فشق المرشد الهندى طريقه وراح يقطعها بسكين حادة ، ونحن من خلفه نتبعه كظله ، حتى بلغنا منطقة بها صخور عليها طحالب ، وظهرت أمامنا بحيرة فأسرعنا نعب من مياهها لنطفىء ظمأنا بعد مسيرة طويلة تحت وهج الشمس .

لقد اكتسبت خبرة من هذه الرحلة الغريبة ، وعرفت أن أفراد قبائل السريس كانوا يبنون قواربهم من أعواد البردى المنتشرة حول البحيرة ، لأنه كان من العسير عليهم أن يعثروا على خشب فى صحراء سونورا ، فى حين كان الشاطئ يعج بأعواد البردى . وربما أخذوا هذه الصناعة عن أجدادهم أو من البحارة الذين زاروا هذه المنطقة فى الماضى السحيق . وكانوا أيضًا يبنون هياكل قواربهم من الأشجار القوية ويغطونها بجلد الحيوانات لأن عجول البحر كانت تغطى صخور جزيرة القروش . إذن

فمن الذى علم رجال قبائل السريس بناء قواربهم ؟  
 تركنا البحيرة ، وتساقنا الجبال ، بعد أن قطع الهنود المرشدون حزمًا  
 كبيرة من البردى ولم نضل طريق العودة لأن الهنود كانوا قد تركوا علامات  
 على طولها . . . وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب عند ما بلغنا قاربنا . . .  
 ولكن حزم النبات لم تكف لبناء قارب ، بل فقدت الأمل تمامًا لأن هذه  
 المنطقة لا تصلح لبناء قارب يعبر بنا المحيط الأطلنطى نظراً لصعوبة  
 الحصول على أعواد البردى ومشقة الوصول إليها عبر غابات الصبّار .

وعند ما بلغنا القرية الهندية الصغيرة خرج الرجال لاستقبالنا وبرز  
 رجل هندي عملاق من قبائل السريس الذين وصفهم الأسبان بأنهم  
 حقًا من العمالقة . ثم اتجه نحو قارب العتيق المصنوع من نبات البردى ،  
 وراح يرممه ويشد حزمه بخبال قوية ، حتى استعاد القارب شكله الأصلي  
 فوقفنا طويلاً نمنع النظر فيه . ثم سحبه الهنود وانطلقوا به نحو أمواج  
 البحر ثم امتطوا ظهره فانساب بين الأمواج رشيقًا سريع الحركة . وعند ما  
 عادوا كانوا قد اصطادوا سلحفاة ضخمة . لكن القارب المصنوع من  
 نبات البردى كان قد امتص قدرًا كبيراً من الماء فجره الرجال وتركوه فوق  
 الرمال ليجف . . .

كانت هذه هى المكسيك ، حيث كان أجداد قبائل السريس  
 يبنون قوارب البردى ويمتطون بها صهوة البحر . . . ومن حولهم جيرانهم  
 يستخدمون نفس القوارب فى تنقلاتهم من إمبراطورية الإنكا فى  
 الجنوب إلى كاليفورنيا فى الشمال . وكذلك فى البحيرات الداخلية



فى المكسيك ذاتها . . . وفى بداية القرن الماضى رسم الرسام الفرنسى ل . شورى Choris ثلاثة من الهنود يجذفون على قارب مصنوع من نبات البردى على طول ساحل ميناء سان فرانسيسكو . وفى المكسيك أيضاً رؤيت قوارب من البردى تشبه قوارب بيرو فى البحيرات وفيما لا يقل عن ثمان ولايات طبقاً لما رواه عالم المايا المعروف دكتور إريك طومسون

Dr. Eric Thompson

وقفت أنظر إلى القارب الورقى الذى سحبه نحو رمال الشاطئ  
ليبقى هناك بجوار كوخ الهنود العشاق ، وكأنه آخر مشاهد فى فصل غير  
مكتوب عن قوارب البردى التى انقرضت فى المناطق الوسطى لأمريكا  
الشمالية . . .

## الباب الرابع

### مع البدو في قلب الصحراء

أفريقيا . . . أجمل اسم لأجمل قارة . . . جدار من الغابات الخضراء وأغصان الأشجار الاستوائية القوية تتحطم تحت أقدام الزنوج وهم يحماون المئذنين ويشقون طريقهم في الغابة الكثيفة . والزراف والقروود تتحرك هنا وهناك وزئير الأسود كقصف الرعود . لم أدخل إلى قلب أفريقيا من قبل . ففي قلب وسط أفريقيا وفي حجرة صغيرة في فورت لامى عاصمة جمهورية تشاد جثتها زائراً في قارب من البردى عبر الأطلسي . إن نهر شاري Shari الوحيد الذي وقع عليه نظري يتدفق بنعومة نحو الشمال . ولكن الماء الذي يحمله من الغابة لا يصل إلى البحر البعيد . . . ومن الغابات الواسعة بالقرب من حدود الكونغو في الجنوب يمر النهر عبر السافانا ونصف الصحراء في طريقه إلى بحيرة تشاد على الحدود الجنوبية للصحراء الكبرى وهنا تبلغ الحرارة درجة كبيرة حتى إن الماء يتبخر بسرعة . . .

كانت هذه هي البحيرة التي أردت أن أزورها ، وبرغم سهولة العثور عليها في الخريطة فإن الوصول إليها من الأمور الشاقة . وفي شمالها ينمو نبات البردى ، ويغطي مساحة كبيرة منها وعلى شواطئها ينبت الزنوج

قوارب تشبه القوارب البردية التي تشبه إلى حد بعيد قوارب جنوب أمريكا  
وجزيرة إيستر . وفي مصر كانت هذه الصناعة قد اندثرت تماماً ولكن هنا  
في قلب أفريقيا لا تزال قائمة . . .

ومن فورت لامي ركبنا سيارة جيب في طريقنا إلى قرية بول Bol التي  
تقع على البحيرة . وكان الطريق وعراً شائكاً عبر الصحراء في الحدود  
الجنوبية للصحراء الكبرى . وكانت درجة الحرارة في أثناء النهار ترتفع إلى  
٥٠ درجة مئوية ( ١٢٢ فهرنهايت ) في الظل ، وقد انبطحت أمامنا  
كشبان الرمال وقد انغrust في بعضها عربة الجيب . وبعد مجهود مضن  
عنيف كنا نشق طريقنا من جديد ، حتى لاحت لنا البحيرة من بعيد .  
ونخطر لنا أن نترك السيارة ونجرب ونلقى بأنفسنا إلى المياه الحلوة ولكن السائق  
( بابا ) نصحننا بأن نتريث حتى نصل إلى قرية ( بول ) Bol فإذا  
واصلنا السير بسرعة دخلناها قبل حلول الليل لأن الصحراء أشد خطورة في  
الليل منها في النهار . . .

وفي قرية ( بول ) انتهى بنا المطاف وتجمع حولنا القرويون . ثم  
ظهر رجل زنجي ضخم سألنا من نكون ، ولماذا جئنا ، وما الهدف من  
هذه الزيارة عند حلول الليل . . . وكان الرجل متوعل المزاج فهو عمدة  
( بول ) مسئول عن ألفي شخص بها من الزنوج والعرب وليس في حاجة  
إلى مزيد من المتاعب .

قضينا ليلتنا في ضيافة العمدة ( أدوم رمضان ) Adoum Ramadan  
وفي الصباح رأيت لأول مرة قارب البردي في قلب أفريقيا وهو يتهادى

على صفحة بحيرة تشاد بجوار جزيرة عائمة من نبات البردى الذى تفتحت زهوره فى اتجاه السماء الزرقاء . . .

أخذنا العمدة إلى السلطان ( مبودو مبامى ) M'Bodou M'Bami القائد الدينى وأقوى رجل فى المنطقة بأسرها ، والسلطان ينحدر من أصلاب قبيلة بدوما ، وعند ما علم برغبتنا فى بناء قارب من أعواد البردى ، أرسلنا إلى أحد رجاله ( عمر مبولو ) Omar M'Bulu وهو من خبراء صناعة القوارب الورقية يجيد اللغة العربية بجانب لغته الأصلية ( بدوما ) Pouduma وعلمنا الرجل كيف نبني قارباً من البردى يتسع لاثني عشر رجلاً كذلك القارب الذى تداعبه الرياح على شاطئ البحيرة . وجلسنا على الأرض نرقب عمر وموسى ورجالا آخرين تطوعوا للقيام بالعمل ، ورأيانهم ينزعون الأغصان القوية التى تشبه الجلود من شجر الدوم ، ويلفون بها أعواد البردى فى براعة وسرعة متناهية كأنها الحبال . . .

كانت أعواد نبات البردى فى تلك البقعة من قلب أفريقيا طويلة تزيد على مترين ، وبقطر بوصتين ، ولم تكن مفرغة أو جوفاء كأعواد البامبو بل أسننجية . وما هى إلا ساعات قليلة حتى كان أمامنا قارب طوله اثني عشر قدماً . إذن فمن الذى علم هؤلاء الرجال هذه الصناعة ؟ ربما تعلموها من أجدادهم الذين تعلموها بدورهم من سكان وادى النيل . . . وفى هذه القرية الصغيرة النائية علمنا أن قوارب كبيرة من البردى تبني بين وقت وآخر لنقل أربعين طنّاً من الأثقال والبضائع من مكان لآخر أو من شاطئ لآخر . وقال موسى ، أحد الذين صنعوا لنا قارب

البردى ، إنه اشترك مرة في بناء قارب نقل أكثر من ثمانين رأساً من الماشية ، وآخر أبحر بأكثر من مائتى رجل دفعة واحدة . . . ولم أصدق الرجل في بادئ الأمر ولكن عند ما قفزت إلى القارب الصغير ومعنى موسى وعمر وعبد الله ، تحمل القارب ثقلنا فذهلت من قدرته .

وهكذا قضينا النهار كله في بناء القارب ثم تجربته . وفي الليل عدنا إلى مكان راحتنا . استلقيت على الأرض مع زملائي نحصى النجوم في السماء حتى غفلت عيوننا بعد عمل يوم طويل شاق . . . ولكن ما كدت أغمض عيني ، حتى سمعت صوت طبول تدق من بعيد ، فجلست على الأرض ، ورحت أنصت ، وحاولت أن أوقظ زملائي ، ولكن النوم كان قد غلبهم فاستسلموا له ، ولم يعبأوا بمحاولاتي . . . فتركت المكان ، ورحت أبحث عن مصدر الصوت في الظلام . وسرت وقتاً لا بد أن يكون طويلاً ، حتى بلغت حائطاً كانت تدوى من ورائه الطبول . فوقفت أنظر إلى دائرة تجمع حولها الرجال ، وراح بعضهم يرقص في داخل الحلبة بالسيوف ، ثم اشتركت فتاتان في الرقص الإيقاعي الجميل ، ورأيتني أنضم إلى الرقص بطريقة آلية . فاتجهت نحوى الأبصار ، وعلت دقات الطبول . وأغلب الظن أنى رقصت وقتاً طويلاً لأن الدائرة الممتلئة بالناس بدأت تنفرط كحبات المسبحة ، ولم يبق غيرى وأربعة رجال . وهنا بدأت منافسة حادة بيننا . ارتفع صوت النفير ، وعلت دقات الطبول ، وبدأنا نرقص في نشوة ، وقوة وجنون ، حتى بدأ الرجال يتساقطون واحداً وراء الآخر . وتجمع الناس من جديد ليلقوا نظرة على



ذلك الرجل الأبيض الذى هبط عليهم يرقص رقصات سريعة على دقات الطبول ... ولعت العيون من حولى ؛ وجوه أسود من الليل وأسنان أبيض من الثلج وجباه تتساقط عليها حبات العرق من طول الرقص ، والإجهاد . وفجأة شعرت بلطمة قوية على كتفى ، فالتفت فإذا به عمر قريب السلطان ، وقد انفرجت أساريره عن ابتسامة كبيرة . . . وهبط على عمر كملك من السماء ورأى الرجال أنه يتحدث إلى كصديق فأخذوا يتسللون فى الظلام واحداً وراء واحد . . .

وفى الصباح انتشرت الشائعات عن مقدرتى كراقص ( التوم توم ) Tom-Tom dancer وعن المبالغ الكبير الذى دفعته للعازفين وضاربى الطبول . . .

اضطررنا أن نمكث فى قرية بول عدة أيام حتى تنتهى بعض المتاعب التى اتخذت طريقها بين العرب والزنوج . وأثناء هذه الأيام أكثرنا من التزهد فى قوارب البردى حتى وصلت ذات يوم طائرة خاصة لنقلنا إلى فورت لامي . . .

ودعنا عمر وموسى وعبد الله وطلبت إلى السلطان أن يسمح لهم بالسفر إلى مصر عند ما تقرر بناء قارب من أعواد البردى لنمخر به عباب المحيط الأطلنطى . . . ووافق السلطان ووافق الرجال كذلك ، وانطلقت بنا الطائرة إلى عنان السماء ، وتركنا قرية بول وبحيرة تشاد ، وقوارب البردى والجزر الطافية الخضراء ، فوق البحيرة الكبيرة . . .

استغرقت الرحلة ساعة واحدة وصلنا بعدها فورت لامي حيث انتظرنا بها عدة أيام على أمل أن يصل إلينا السائق بابا ومعه القارب الصغير وبعض المعدات التي لم تستطع الطائرة الصغيرة حملها . . . ومضت الأيام ولم تظهر سيارة الحبيب فاتصلنا بقرية ( بول ) فأفادنا العمدة أن السائق غادر القرية منذ أيام فأرسلنا عدة سيارات تبحث عنه ، وطائرة صغيرة ، ولكن جهودنا كلها باءت بالفشل . وعائدنا الكرة من جديد ، وأخيراً جاءتنا الأنباء أن السيارة سرقت ، وأخفيت خلف شجرة كبيرة في الطريق الصحراوي الطويل . . . وحاول السائق أن يبيع ما فيها من معدات تصوير لكن أحداً لم يبد اهتماماً بها . ولما كان القارب غير ذي موضوع فقد ألقوا به في الصحراء . ولم يستطع الرجل غير بيع وقود السيارة . . . وعادت إلينا معدات التصوير . أما الذي حدث للسائق بابا بعد ذلك فلم نستدل على شيء من أخباره . . .

وعادت إلينا معدات التصوير كاملة . والغريب أنه قبض على عبد الله ذلك الرجل الأمين الذي قدم لنا خدمات جليلة في أثناء وجودنا في قرية بول بتهمة التجارة في الرقيق .

وهكذا تركنا قلب أفريقيا حيث شاهدنا في تلك البقعة النائية كيف يبنون قوارب البردي بنفس القدرة والكفاءة التي كانت تبني بها القوارب في كل من مصر وأمريكا الجنوبية وجزيرة إيستر . . .

## الباب الخامس

### فى وسط الرهبان السود عند منابع النيل

لكى نبني قاربًا من البردى ، كان علينا أن نبحث عن نبات البردى .  
ولكن أين نجده ؟ هل نجده فى تشاد عند بحيرة الصحراء ؟ إن الطريق  
إليها وعمر شاق . فلا أنهار تشق طريقها فى وسط أفريقيا إلى العالم المحيط .  
ولا طرق سهلة من أى نوع كانت . وكنت فى حاجة إلى أعواد كثيرة من  
البردى لا أستطيع نقلها على متن الجمال . حقيقة أن صنّاع القوارب يمكن  
أن يأتوا بالطائرة ، ولكن ليس هناك أعواد تكفى لبناء قارب كبير يتحمل  
رحلة المحيط . فتركت هذه الفكرة جانبًا ، واتجهت بنظري إلى مصر . . .  
فالفرعون العظيم مسجى فى قبره ، وقوارب البردى من حوله منحوتة على  
جدران مقبرته الصخرية . . . الصخور فى الصحراء والبردى على شاطئ  
النهر ، والطمى يتدفق على ضفاف النيل فى أثناء جريانه من جبال  
إثيوبيا . . .

لقد أسس الفلاح المصرى حياته على الطمى . وصنع الصياد قاربه  
من البردى ، فى حين استخدم الفرعون الصخور ليخلد نفسه . وعلى أوراق  
البردى سجل أساتذة مصر وعلمائها فصولا من حياة الإنسان الأول .

وكانت الصخور تنقل على قوارب مصنوعة من نبات البردى ، لذلك  
خلدت ونقشت على الصخور . وظهرت زهور البردى في الفن المصرى  
القديم مرة ومرات ، حتى أصبحت رمزاً وطنياً للصعيد أو مصر العليا .  
وفي الأساطير اتحدت مع زهور اللوتس للوجه البحرى على يد حورس (الرجل  
الطائر) . ابن إله الشمس رع ، عند ما اتحدت مصر في مملكة واحدة .  
لكى نبى طوفاً كان علينا أن نفعل كما فعل رجال الإنكا . . . التوغل  
في غابات إكوادور للبحث عن أشجار فتية مليئة بالعصارة أولبن النبات . . .  
ولكى نبى قارباً من البردى كان علينا أن نفعل كما فعل الفراعنة . . .  
الحوض في مستنقعات البردى على طول شواطئ النيل ، وقطع أعواد  
البردى الطازجة . وعند ما أراد فرعون مصر أن يبنى قارباً لم تصادفه  
مشكلة واحدة ، لأن بناء القوارب كانوا يعرفون كل شىء عن نبات البردى ،  
وصناعة قوارب البردى بعد أجيال طويلة من الخبرة . وكانت القوى العاملة  
غير محدودة ، ومواد البناء متوفرة تنمو في أعداد لا حصر لها خارج  
بوابات القصر . ومستنقعات البردى على ضفتى النيل تمتد من ساحل  
البحر الأبيض المتوسط إلى عدة أميال داخل الصحراء المصرية . . .  
ولكن كان هذا في الماضى السحيق . وأعواد البردى لا تنمو الآن في  
مصر . هكذا أكد لى جورج سوريال ، وجورج من رجال الضفادع  
البشرية يعرف النيل معرفة تامة وأذكر أنه قال : هناك صخور كثيرة إذا  
أردت أن تبني هرمًا ولكن ليست هناك أعواد من البردى تكفى لصنع  
عربة أطفال . . .

وعلى صفحة النيل كانت القوارب الشراعية تتهاذى ، وقد تناثرت أشجار النخيل على الضفتين ، وامتدت الحقول الخضراء على مرمى النظر . ولكن لم يرفع عود بردى واحد قامته ليعكس صورته على صفحة الماء . فقد انقرض البردى من مصر فى القرن الماضى . . . ولا أحد يعرف السبب . ربما أن الآلهة قد استعادت إحدى هباتها القديمة لوادى النيل ، ونزعتها من جذورها . ولم تبق غير أعداد كبيرة من قطع الحجارة هنا وهناك ووراء سد أسوان . وعند ما اختفت أعواد البردى من الوادى اختفى كذلك بناء القوارب إلى الأبد . . .

على ظهور الإبل والحياد ، وفى السيارات ، والقطارات ، والقوارب ارتحلنا على طول نهر النيل . ونزلنا ضيوفاً على أصحاب هذه القوارب التى ولد عليها أصحابها . قوارب من الخشب على ظهورها خيام من القماش هى بيوت صيادى الأسماك أو عالمهم . . . وشاهدنا كيف يطهو أصحاب هذه القوارب طعامهم فى أفران مفتوحة من الطين على ظهر القارب الذى لا يقبل الاشتعال وكيف يجففون بعض أنواع الطعام تحت حرارة الشمس الحارقة .

ونهر النيل طويل ، طويل يمتد عبر مصر وعبر السودان إلى منابعه البعيدة فى أوغنده وإثيوبيا . وهناك فى البحيرات عند منابع النيل ظل نبات البردى ينمو كما نما هناك عند بحيرة تشاد البعيدة . . .

ولا بد أن الشعوب القديمة المتحضرة ارتحلت إلى مسافات بعيدة





قارب من البردى وعليه اثنان في مستنقعات سردينيا

وعريضة لأن معظم الفراعنة الذين حكموا مصر ولدوا في أثيوبيا البعيدة حيث منابع النيل الأزرق (١). ولكن في العصور الوسطى ظل نهر النيل الطويل منسياً . وأن منابعه الأسطورية كانت هناك في جبال القمر الغامضة حتى استطاع الإيطاليون والبرتغاليون أن يكتشفوا المنابع العليا للنهر . وفي الوقت الذي نشط فيه الأوروبيون كان كولمبس يعد لرحلته عبر المحيط لاكتشاف أمريكا . ولأول مرة عرف إنسان العصر الحديث أن

( ١ ) بدأ حكم الأثيوبيين لمصر في الأسرة الخامسة والعشرين ولم يعمروا طويلاً ( الناشر )

النيل الأزرق يتدفق من بحيرة تانا التي تقبع هناك عالياً فوق مستوى البحر في هضبة إثيوبيا . . .

كان علينا أن نرتحل إلى أعلى النيل للبحث عن نبات البردى .  
وبرغم أن هذا النبات ينمو في المغرب وجزيرة صقلية إلا أن كمياته لا تكفي لبناء قارب واحد . وأخيراً وصلنا مدينة أديس أبابا التي ترتفع عن مستوى البحر بثمانية آلاف قدم ، على هضبة جبلية خضراء تنتشر فوقها الزهور البرية الصندراء ترصع قلب الإمبراطورية العجوز .

وكان رفيقي في هذه الرحلة المصور الإيطالي توزي Tosi . ومن أديس أبابا ركبنا طائرة صغيرة إلى بحيرة تانا . وقبل عصور الفراعنة الأوائل ، والنيل يفتت جبال إثيوبيا ويحمل معه معادنها لتزدهر الحقول في مصر . وفجأة انحرفت الطائرة نحو قمم الجبال ، واختفى النيل من تحتنا ، ودوى في الجحور زئير يصم الأذان ، طغى على أزيز الطائرة . والتصقت معدتي بعظام ظهري ، فأمسكت بالمقعد وأنا أنظر إلى السد في مجرى النهر . فقد تمزق النهر العظيم الضخم وأصبح على هيئة حائط من الزبد الأبيض وتدفقت كميات عظيمة من الماء فوق قمم الجبال الممتدة أمامنا وعلى جانبيها ، وفوقنا وتحتنا ترعد وتصخب ، واختفت الشمس وراء الهوة المحيطة بنا . واعتدل الطيار بطائرته واستوى بها فوق النهر المتدفق في قوة عارمة من شلالات « تيسيسات Tissisat » حيث تنحدر منها مياه النيل الأزرق أو تسقط من فوق الهضبة العالية المرتفعة . واندفعت بنا الطائرة إلى أعلى وعبرنا قوس قزح ملون عبر السماء الزرقاء وأصبح النيل أفقياً تحت أجنحة الطائرة . . .

وأخيراً هبطنا في منطقة بحر دار ، وبعد دقائق كنا نصور المنظر الرائع أو الخط الذي يقسم بين عالمين أو عالم على مستويين . وكنا نعرف أنه على مسافة من هذا المكان توجد قوارب مصنوعة من البردي تماماً كما كانت توجد أيام فرعون مصر . وهنا كنا نأمل أن نعثر على كميات غير محدودة من نبات البردي ، على مسيرة يوم واحد من شلالات تيسيسبات حيث يتدفق النهر العظيم من بحيرة تانا .

عندما بلغنا منابع النهر كان الليل قد أرخى سدوله . وبدأت بحيرة تانا تتألاً كأن صفحتها من الفضة الداكنة تعكس سحب المساء ، وظلال الجبال ، وقمم الأشجار . وهناك في الخليج كانت تنساب ظلال طويلة على صفحة الماء على حافة الشريط الفضي ، ورأينا ستة قوارب من البردي تجرى على صفحة بحيرة تانا متجهة نحو الشلال . وفي كل قارب جلس شخص أو شخصان من الصيادين . . .

أما جبال أثيوبيا فكانت تبدو للمستكشفين في القرون الوسطى . وهم ينحدرون إليها من البحر الأحمر أو من سهول مصر . وترتفع بحيرة تانا بنحو ستة آلاف قدم فوق مستوى البحر تحيط بها الجبال التي ترتفع بنحو أربعة عشر ألف قدم . ومع ذلك فإن مساحة الماء كانت كبيرة جداً حتى إنك لا تستطيع أن ترى الشاطئ . وكانت البحيرة ذاتها داراً للرهبان السود الذين يعيشون في جزرها ذات الأحراش والأدغال . وظلت قوارب البردي حلقة اتصالهم بالعالم الخارجي .

وعلى مسافة بعيدة في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، وفي الوقت الذي

كانت تنهادى فيه قوارب البردى على بحيرة تشاد من بعيد . كانت نفس القوارب المنحنية بأناقة تنهادى على صفحة بحيرة تانا وقد حافظت على هيئتها المصرية القديمة . ولم يحاول صناع القوارب أن يطوروها أو يغيروا من شكلها ، فاحتفظت بمنظرها عبر ألوف السنين ، ومنذ فجر التاريخ ، وهؤلاء الرهبان السود الذين عاشوا عبر القرون ، حافظوا بدورهم على تقاليد حياتهم ، فارتدوا زيًّا مميزاً ، وبرغم أن أشجاراً ضخمة نمت في الجزر التي يعيشون فيها ، فإنهم لم يبنوا القوارب الخشبية أو يصنعوها من جذوع الشجر . واستخدم أجدادهم قوارب البردى في القرون الوسطى ، وهاهم يستخدمونها اليوم في عصر الذرة . وقد جئنا لتعلم من هؤلاء الرهبان السود ونستفيد من تجربتهم وهم وحدهم الذين يعرفون أين ينمو البردى بوفرة وكثرة . . .

إذن فمن هم الذين علموا هؤلاء الرهبان ؟

في فجر المسيحية انتقل الدين الجديد من مصر إلى أثيوبيا قبل أن يتم الاتصال بين منابع النيل المنخفضة ومنابعه العليا بألف سنة ، وفي عام ٣٣٠ وفي الوقت الذي كانت فيه المسيحية تشق طريقها خلال القارة الأوربية كان المذهب القبطي المسيحي ينتشر من مصر حتى ربوع أثيوبيا . واستقر المسيحيون الأوائل في مملكة أكسوم Axum القديمة هناك فوق جبال أثيوبيا شمال بحيرة تانا . ثم فر معظمهم بعد ذلك إلى الجنوب . ومن الجزر المحصنة في بحيرة تانا وزواي Zwai لينجوا من الاضطهاد . واختفى الرهبان السود في بحيرة تانا بعد أن ظلوا بها سبعمائة عام ،

وانضمت إليهم أجيال جديدة من الشباب . جاءوا من داخل البلاد إلى  
الجزر في قوارب من البردى .



قارب بردى به ثلاثة من الصيادين في بحيرة تانا  
ذهبنا لمقابلة الرهبان السود . وكانت أول جزيرة هبطنا إليها دغلا  
كثيفاً من الأشجار وكان في انتظارنا كاهنان تسربلا في رداءين طويلين ،  
وظهرت أقدامهما عارية ولحيتهما سوداوين كالليل . وعلى صدريهما  
تدلى صليبان فضيان من الطراز القبطي وانحنى الراهبان بهدوء وأشاروا  
نحو الطريق الذى سوف نسلكه إلى قمة الجبل . ورأينا بعض قوارب  
البردى وقد وضعت بعناية بجوار حائط كبير ويجوارها كميات من أعواد



البردى وقد جمعت على هيئة حزم . . .

صعدنا مرةً مرتفعاً حتى بلغنا كنيسة صغيرة فوق الجبل . وظهر عدد من الرهبان السود الأثيوبيين في ملامحهم الدقيقة وأعوادهم الطويلة وأنوفهم المعقوفة ولحاهم الطويلة وكانت وجوههم صغيرة لشبان وفتية يرتدون أردية خشنة . أقدامهم عارية أو في صنادل مفتوحة ، يعيشون على أسماك البحيرة يصابون ويترنمون ويشكرون . . .

كانت الجزيرة تسمى « كوفران جبرائيل » Govran Gabriel ورأينا صورة للملاك جبرائيل وقد استل سيفه عند ما أخذونا إلى داخل الكنيسة ، وجميع الكنائس القبطية في بحيرة تانا تشبه كنيسة الملاك جبرائيل ، وقد زينت بصورة قديمة يرجع تاريخها إلى ثلاثمائة سنة أو أكثر . ورأينا كذلك صوراً لفرعون مصر وهو يغرق بجيشه في البحر الأحمر وقد برزت نخوذات القادة وأسلحة الجيش من فوق سطح المياه . وجلسنا نتحدث عن قوارب البردى . فهي بالنسبة للرهبان السود كالخيل والجمال لفرسان الصحراء . . . وعرفنا أنهم يسحبون هذه القوارب بعد رحلاتهم النيلية لتجف فوق الرمال . وإلا امتصت المياه . وبرغم أنها لا تغرق مطلقاً إلا أنها تفقد قدرتها على الحمولة في المسافات أو الرحلات الطويلة . وكلما ازداد القارب اتساعاً أصبح قادراً على الطفو . ولكن لا فائدة ترجى من بناء القوارب الكبيرة لصعوبة سحبها على الرمال لتجفيفها بعد كل رحلة تقوم بها . . . فتركنا الرهبان السود إلى جزيرة أخرى يطلقون عليها اسم نارجا ( Narga ) وكانت هذه الجزيرة مسطحة

ينمو في وسطها نبات البردى ، مما شجع الرهبان الذين يعيشون فيها على استمرار تجديد قواربهم مرة كل سنة . . .

وفي البرج الحجري الوحيد جلس راهب من الرهبان لم ينبس ببنت شفة أو يلفظ بكلمة واحدة بل لم يتحرك من مكانه مطاقاً في أثناء زيارتنا . وهذا البرج قصة . فقد بنته الإمبراطورة منتواب (Mentual) منذ مائتين وخمسين سنة للعبادة والتأمل . وجلس صاحبنا الراهب في أعلى مكان فيه منذ سنوات قليلة مضت بعد أن أقسم أن يجلس هكذا بلا حراك بقية حياته حتى يموت . . . ويعتبره إخوانه الرهبان قد يساً يجلس بين السحب العابرة لا يأتي بحركة واحدة . . .

وانتقلنا إلى جزيرة « داجا ستفانو » Daga Stefano وهي جزيرة مقدسة لا تطأها أقدام النساء ، ولا أميرات البيت المالئ فقد حرمت عليهن الجزيرة إلى الأبد . . . وقد حاولت الأميرة منتواب أن تدلف إليها . ولكن لم يسمح لها على الإطلاق منذ قرنين ونصف قرن من الزمان . وفي هذه الجزيرة طالعنا قوارب البردى وحراس أشداء يحرسونها بالليل والنهار وسمعنا صلوات تنبعث من هنا وهناك . وأعواد البردى تنمو بوفرة غريبة ، وتحمل المياه لمدة ثمانية أيام أو أسبوعين بدون أن تغرق أو تغوص في الماء . ولكنهم قالوا إن أعواد البردى يجب أن تظل جافة بعيدة عن الماء . . . ولم تختلف معلومات رهبان هذه الجزيرة عن غيرها من الجزر التي زرتها في بحيرة تانا . . .

ودعانا رهبان الجزيرة المقدسة إلى كهف من الكهوف الغربية .

فدخلنا غرفة من غرف الرعب . فقد رأينا أكوامًا من الجماجم البيضاء ،  
والصلبان العتيقة ، والأمتعة الخاصة بالأساقفة والمطارنة الذين ماتوا من  
أزمة بعيدة . أما الكنوز الحقيقية فكانت لأكفان من الزجاج مغطاة  
بالقماش . وأزاح الراهب القماش جانبًا فظهرت أربع موميات لأربعة  
من أباطرة إثيوبيا القدماء الذين حنطوا ليقتضوا أبديتهم في الجزيرة المقدسة  
وقد عبرت جثث هؤلاء الملوك بحيرة تانا العاصفة فوق قوارب من البردى ،  
تمامًا كما كانت تستقل جثث الفراعنة المحنطة فوق القوارب على صفحة  
النيل لدفنها . . .

خرجنا من هذه الزيارات للرهبان السود بمحville من الآراء والأفكار .  
فقد عرفنا أن قوارب البردى يجب أن تكون صغيرة ليسهل سحبها وتجفيفها  
بعد رحلة يوم واحد في النهر . . . وكان هذا الرأي محالًا بالنسبة للمحيط  
الذى ننوى أن نعبه على متن قارب مصنوع من نبات البردى . . أما  
القوارب الضخمة التى رأيناها في بحيرة تانا ، فقد كانت مصنوعة من  
جزئين : قارب رفيع له مقدمة أو دفة منحنية . ووسادة سمكية من البردى  
ملء الفراغ . أما قوارب بحيرة تشاد فأكثر صلابة . والفرق بين الصناعتين  
أن رهبان بحيرة تانا حافظوا على الشكل الأصيل للقوارب الورقية فجعلوها  
خفيفة ، فى حين ركز صناع بحيرة تشاد جهودهم لكى تتحمل قواربهم  
الأحمال والأثقال . وفى طريق عودتنا إلى الشاطئ المقابل لبحيرة تانا  
عبرنا جزرًا صغيرة ورأينا أعداداً من حيوان « سيد قشطة » ، وقال لنا  
الرهبان إن هذه الحيوانات تمقت قوارب البردى وتقلبها إذا حانت الفرصة  
رحلات رع

لأنه كان يتم صيدها عن طريق هذه القوارب منذ أزمنة غائرة في التاريخ .  
 وفي أقصى الجنوب الغربي لبحيرة تانا عثرنا على مستنقعات من نبات  
 البردى . . . ومن بين أعواد البردى الطويلة سبحت طيور عديدة الأشكال  
 والألوان والأحجام . وفي هذه المنطقة ، كما في غيرها من المناطق ، كان  
 يغلب على ظن الناس أن قوارب البردى لا تستطيع أن تمكث في  
 الماء أكثر من أسبوعين وإلا امتلأت بالماء ، وغاصت تحت الأمواج .  
 وكان الحل الوحيد أمامنا أن ننقل أعواد البردى من بحيرة تانا ، وكذلك



قارب بردى يصطاد به صاحبه في بحيرة زواى

صناع القوارب من تشاد ، ونستخدم الرسوم التي ظهرت على مقابر قدماء المصريين للقوارب القديمة . . .

وفي اليوم التالي اتجهنا إلى بحيرة زواى بعد أن سلكنا طريقاً ضيقة ودوربياً وممرات تسير عليها قطعان الحيوانات عند هجرتها كل عام من مكان إلى آخر . وعلى جانبي البحيرة رأينا مستنقعات من نبات البردى ومئات من القروء تلعب فوق أغصان الشجر وسمعنا أصوات الضباع والطبول من بعيد . وأخذنا ننتقل من جزيرة إلى أخرى ونفحص قوارب البردى المختلفة الأحجام والأشكال وندون ملاحظتنا عن طريقة صنعها . وعرفنا أن هذه القوارب تشبه قوارب البردى في تشاد والمكسيك وبيرو . . .

وعدنا إلى مصر تتقاذفنا الهواجس وتختلط علينا الأفكار فهل عبور الأطلسي من الأمور الضرورية والمخاطر التي يجب أن يقدم عليها الإنسان . . . هل تساوى الرحلة هذا العناء الكبير ؟ ! . . .





## الباب السادس

### عالم بناء الأهرامات

قال الوزير المصرى موجهًا إلى الحديث ومعنا سفير النرويج :

— إن قاربًا من البردى يغرق بعد أسبوعين . . . ليست هذه كلماتى بل هى لرئيس معهد البردى المصرى . ويقول علماء الآثار إن قوارب البردى لا يمكن أن تكون قد ارتحلت وراء مصب نهر النيل لأن البردى يذوب فى ماء البحر ويتحطم فى الأمواج . . .

فقلت معقبًا :

— هذا هو ما نريد أن نجربه تمامًا . . .

لم يكن أمامى أى شىء أستطيع أن أقدمه ، أو أعرضه على بساط البحث غير أن أقوم بالتجربة مهما كلفنى ذلك من مشقة وجهد . ولا سيما وقد وقف أمامى عدد من الخبراء فى نبات البردى . فوزير الثقافة ووزير السياحة قد بذلا مجهوداً كبيراً ، وعقدنا اجتماعاً حضره عدد من مديرى المتاحف ورجال الآثار والمؤرخين وخبراء البردى . وعرض رئيس معهد البردى رأيه بصراحة وكرره ، ولكنه قال مبتسمًا : بما أنك قد رأيت قاربًا من قوارب البردى يمحى عباب الماء فأنا أول من يشجعك أن تقوم بالتجربة . . .

أما فكرة أن قاربًا من البردى ، بالنسبة إلى رئيس متحف القاهرة ،  
يمكن أن يتهدى بين أمواج البحر فقد كانت فكرة طائشة لأنه قال : إن  
مصر كانت تصدر البردى إلى بابلوس لصناعة الكتب في العصور القديمة ؛  
لأن القوارب الخشبية كانت تستطيع أن تعبر ذلك الركن الداخلى المفتوح  
من البحر المتوسط . أما أن يعبر قارب من البردى المحيط الأطلنطى  
فذلك يكاد يكون ضربًا من المحال ، وأى خبير يستطيع أن يقول إن مثل  
هذا القارب الورقى لا يستطيع أن يذهب وراء مصب النهر . . . .

وتدرج النقاش من البردى إلى الأهرامات إلى الميروغليفية على  
جانبى المحيط الأطلنطى وأخيراً قال الدكتور جمال محرز المدير العام  
للآثار المصرية (١) .

— إذا استطاع إنسان أن يبنى قاربًا من نبات البردى على غرار  
القوارب المرسومة على جدران حجرات الدفن ، ويحاول أن يجربه فمما  
لا شك فيه أن هذه تجربة سوف تكون على جانب كبير من  
الأهمية . . . .

وصرح على الأثر وزير الثقافة لمحافظة البحيرة أن يعطينا مساحة كبيرة  
عند سفح هرم خوفو لإقامة الخيام عليها لبناء القارب الورقى . وبشرط.  
ألا نحفر فى الرمال ، وذلك لأننا سوف نكون فى وسط مقابر الأسر الفرعونية  
القديمة . وعندما انتهى الاجتماع ، وفى أسفل الدرج التقيت بوكيل  
وزارة السياحة عادل طاهر الذى هزّ على يدى بحرارة وقال :

يجب أن تبني القارب فنحن من أنصار تجربتك لأنها سوف تذكر العالم بأن مصر تصنع الثقافة . . .

ووجدتني أخيراً واقفاً مع السفير النرويجي « بيتر أنكر » Peter Ankar وهو يتسم ابتسامة عريضة، فبجانب عمله كسفير لبلادي، يحب التاريخ القديم ويعشقه . وأخيراً جلست في غرفتي ورحت أفكر . . . فليس أمامي وقت للانسحاب أو التراجع ، وعلى أن أقرر فوراً وبسرعة خاطفة لا سيما وأن مدخراتي لا تكفي للقيام بالمهمة . . . ولكن ناشري هذا الكتاب ربما قاموا على نتيجة الرحلة أو المغامرة . فماذا يحدث إذا لم نخرج من التجربة بنتيجة مرضية ؟

داعبت ورقة صغيرة بين أصابعي . ومر أمامي شريط طويل من الذكريات ، الرهبان السود ، رجال القبائل المختلفة ، والعلماء ، وخبراء البردي ، كل هؤلاء لم يقدرُوا للقارب البردي غير أربعة عشر يوماً في الماء يغوص بعدها إلى الأعماق . ولكني مكثت ساعات طويلة في قوارب مختلفة من البردي . . . كما جلست في قارب تفكك في الماء وكاد يغرق . . . وكنت أعرف أن أعواد نبات « التوتورا » في أمريكا أصلب من أعواد البردي تتحمل الرحلات الطويلة ولا تمتص الماء بسرعة كما يفعل البردي . . .

وأمسكت بورقة أخرى وقرأت ما فيها :

« عزيزي ثور في إيطاليا :

هل تذكر عبد الله من تشاد ؟ إنني على أتم استعداد للحضور

لبناء قارب كبير مع عمر وموسى . ونحن فى انتظار أوامرك . . . وأنا أعمل حالياً نجاراً فى باستور آير بغورت لامى . . .

... مع تحياتى ... عبدولاي جبرين (abdullah) Abdoulaye Djibrine  
 وارتسمت أمامى صورة عبد الله بوجهه الأسود الفاحم ، وضحكاته ،  
 وآثار جرح على حاجبيه وأنفه ، وابتسمت للخطاب الرقيق ، وكان رائعاً  
 من ذلك الرجل الأسمى فى قلب أفريقيا الوسطى أن يبحث عن عنوانى  
 ويدعونى إلى العمل . . . ولكن لماذا ترددت ؟ فعبد الله على أتم  
 استعداد للحضور ومعه عمر وموسى . فهم يبنون القوارب الكبيرة لنقل  
 الماشية عبر بحيرة تشاد ويعرفون عن قدرتها ما لم يعرفه أساتذة هذا العالم .

وهم على استعداد لبناء قارب يطفو على وجه المياه لعدة أشهر .  
 لقد وضع خطاب عبد الله حدّاً لترددى وعلى أن أعتمد على رجال من  
 تشاد . . .

وفى هذه الليلة أبرقت لصديق لى فى أديس أبابا ، يمتلك قاربين  
 كبيرين فى بحيرة تانا ، وكنت قد اتفقت معه على أن يقطع مائة وخمسين  
 متراً مكعباً من أعواد البردى يخففها ويخزمها فى الطرف الشمالى من البحيرة .  
 ولهذا الرجل خبرة فى نقل الأثقال فقد سبق أن نقل حجراً أثرياً وزنه  
 ١٨٠ طناً من أكسوم إلى روما فى عام ١٩٣٧ . وقرر صديقى « ماريو  
 بوتشى » Mario Buschi أن ينقل خمسمائة حزمة من البردى مسافة  
 ٤٥ ميلاً عبر جبال أثيوبيا من بحيرة تانا إلى البحر الأحمر . . .

لم يكن أمامى وقت أضيّعه . فعيد الميلاد يقترب . وإذا كان علينا

أن نعبّر الأطلنطى قبل موسم الأعاصير فيجب أن نبحر من أفريقيا في شهر مايو . وظهرت أمامى مشكلة أخرى . فقطع أعواد البردى بهذه الكمية الضخمة سوف يستغرق وقتاً طويلاً لأن المياه عالية في بحيرة تانا في ذلك الوقت . فطول العود الواحد يزيد على عشرة أقدام ، ويجب أن تقطع تحت الماء ، ثم تجفف في الشمس وإلا تعفنت . بعد ذلك تأتي مرحلة شاقة أى نقلها عبر جبال أثيوبيا وأخيراً إلى البحر الأحمر . . . . وقبل أن تصل إلى القاهرة لا بد من إقامة الخيام وإمدادها بكل وسائل الراحة عند سفح الأهرامات . فإذا تم بناء القارب كان علينا أن ننقله إلى أى ميناء أفريقى على ساحل الأطلنطى مستخدمين الميكانيكية المصرية القديمة في إدارته والإبحار به بعد ملئه بقوارير الماء والطعام . والحق يقال ، كانت هناك ألوف الأشياء لا بد من إنجازها . . . .

أرسلت البرقية إلى أثيوبيا ، وأخرجت ورقة وقلمًا فلا بد من إدارة العجلة حالاً والبحث عن بحارة ليشتركوا معى في التجربة . .

وفكرت في الحال في البحارة الذين عملوا معى على طوف البلازا - كون تيكى - الذى عبرت به المحيط الباسيفيكي ، وكنا نتقابل بين وقت وآخر ونسترجع ذكريات الرحلة الغربية - على هذا الطوف كنا خمسة من النرويجيين وسويديًا واحدًا أى ستة من الأسكندنافيين . ولكن على قارب رع ، قررت أن يكون عددنا سبعة من البحارة من جنسيات مختلفة من الأوربيين والأفريقيين . وأن يكون معنا خبير في صناعة القوارب . ولما كان هدف الرحلة لإثبات أن اتصالاً قد تم بين الحضارتين القديمتين

لأفريقيا وأمريكا فمن الأفضل أن يكون معنا مصري ومكسيكي ومندوب من الولايات المتحدة وآخر من روسيا وأن يرتفع علم الأمم المتحدة على القارب بعد الحصول على الإذن بذلك .

وفوق أني الهول والأهرامات كانت الانفاثات الحربية تهدر وترعد والمدافع تقصف على طول قناة السويس ، والبحنود من القارات الخمس يتقاتلون في حرب ضروس في بلد أجنبي . . . وفي الأماكن التي لم تصلها الحروب كان الرجال يجلسون وراء الأضرار الذرية في خوف من الدول الأخرى . ولكن على قارب مصنوع من نبات البردى كانت الصورة تختلف ، فيه مكان يلتقي فيه مندوبو الأمم والشعوب المختلفة ، ويعيشون تحت سقف واحد في وئام وسلام . لقد كان الهدف من الرحلة أن تكون تجربة ودراسة لحضارة الإنسان التي بدأت تتصدع . فأرض أجدادنا لم يعد لها وجود فقد ازدحمت الأرض بالناس والنفاثات ورجال الفضاء . وأصبحت الكرة الأرضية محدودة يدور حولها الإنسان في ساعة واحدة وأربعين دقيقة . ولم تعد الجبال وسلاسلها تفصل بين الأمم والشعوب ، ولم تعد الأجناس مستقلة أو معزولة فالكل متصل بالكل وأصبحت الأرض مزدحمة . وفي الوقت الذي يعمل فيه مئات الألوف من الخبراء في تحطيم الذرة وإشعاعات ليزر ، فإن عالمنا الصغير يدور بسرعة تزيد على سرعة الصوت نحو مستقبل غامض ، لذلك شرعنا نعمل لتحقيق أمل قد يكون واهياً . . .

إن فكرة الإقلاع بقارب من البردى محاولة لإثبات أن الرجال يمكنهم



أن يعملوا معاً في سلام بغض النظر عن جنسياتهم ودياناتهم وألوانهم أو معتقداتهم السياسية . لهذا السبب بدأنا العمل . . .

تناولت قلمي وكتبت إلى عبد الله وطلبت إليه أن يحضر ومعه عمر وموسى ، وسوف أكون في انتظارهم عند وصولهم إلى القاهرة . . . ولدهشتي وصانئ الرد بسرعة وطلب عبد الله شهادة عمل ومائة وخمسين ألف فرنك تشادى . وكان المبلغ ضخماً حتى إن البنك الأهلئ فى إيطاليا لم يعرف سعر التحويل للفرنك التشادى . أضف إلى ذلك أن مشاكل عديدة سوف تقوم قبل أن يصل المبلغ سالماً إلى يدى عبد الله جبرين . لقد وثقت بهذا الرجل من أول وهلة ، وبدون أن أعرف عنه شيئاً ، غير أنه رجل فى رداء أبيض ظهر فى قرية بول ، ومن مكان مجهول ، ثم اختفى مرة أخرى ، بعد أن تطوع ليعمل مترجماً فى أثناء زيارتى لبحيرة تشاد . وكما يقول الرجل فحرفته نجار وإذا كان لا يخدعنى حقيقة ، فسوف يوفر على الوقت والمال . . .

تطور الموقف فبوتشى الإيطالى سيقوم بشحن حزم البردى ، وعبد الله وبناء القوارب سوف يصلون إلى القاهرة . فأسندت إقامة المعسكر عند سفح الأهرامات إلى صديقى المدرس الإيطالى « أنجلو كوريو » Angelo corio الذى اتصل بدوره بصديقه العقيد المتقاعد عطية أسامة ليحصل على الإذن الخاص بتفريغ شحنة حزم البردى فى منطقة السويس .

بدأت العجلات تدور حقاً فى دولة بعد أخرى ، وعثرت على إيطالى ومصرى ، وزنجى من تشاد ، على أن أختاره من بين الرجال الثلاثة

الذين سيصلون إلى القاهرة لبناء القارب الورقى ، ورابع من روسيا وخامس من أمريكا . . . جنسيات مختلفة من الشرق والغرب يجتمعون فى قارب واحد ليعبروا المحيط الأطلنطى فوق قارب ورقى . وقررنا أن نبدأ الرحلة من المغرب . وطرت إلى نيويورك حيث قابلت أوثانت (١) السكرتير العام للأمم المتحدة الذى اقترح على أن أقابل صديقه أحمد بن حيمة Ahmed Benhima مندوب المغرب فى الأمم المتحدة . وكان سعادة المندوب رجلاً ينحدر من أصلاب العائلات المغربية العريقة . . . وتناقشنا معه طويلاً حول الميناء الذى سوف نبهر منه إلى أمريكا ، ووقع اختيارنا على ميناء آسفى Safi مسقط رأسه (٢) . وتعجب الرجل لماذا اخترنا هذا الميناء بالذات ؟ وكان ردنا أنه أقدم ميناء أفريقى وراء جبل طارق . ووراء هذا الميناء بالذات يدفع كل من تيار كنارى والرياح التجارية أى شىء يطفو فى اتجاه أمريكا . . .

بعد زيارتى لأمريكا بأيام قليلة سافرت إلى لىما Lima فى بيرو . . . وكنت أجلس مع مجموعة من هنود «أورو» Uru وهم يطهون السمك فوق قارب على صفحة بحيرة تيتيكاكا . وكانت الجزيرة مزدحمة بأعواد البردى التى تكاثفت ونمت فوق بعضها بعضاً حتى إن الطبقات السفلى تعثنت . وكانوا يقطعون دائماً أعواد التوتورا Totora الطازجة . . . ومن

---

( ١ ) ترك السكرتير العام للأمم المتحدة منصبه بعد الرحلة .

( ٢ ) يسمى المغاربة الميناء « آسفى » وقد أطلقت عليه الصحف اسم «صافى» .

هذه الأعواد كانوا يبنون بيوتهم ويطهون بها طعامهم . وقد جئت إلى هذا المكان لأتحقق من أمر هام . . . فهنود الأورى مثل هنود الكوشوا والآيتارا *Quechua & aymara* الذين يعيشون على شواطئ البحيرة ذاتها ومثل زنوج البدوما فى تشاد لا يسحبون قواربهم الورقية من الماء كل يوم لتجف . ومع ذلك فإن قواربهم لم تغرق مطلقاً فى مدى أسبوعين . حقيقة إن القوارب تهبط تدريجياً وكان السبب الرئيسى فى ذلك أن القوارب فى جنوب أمريكا مثل قوارب تشاد تشد عادة بحبال مفتولة قوية وتنسج بدقة تامة بحيث تختفى الفراغات بين أعواد البردى وتلتحم التحاماً . أما قوارب أثيوبيا فكانت مفككة تشد إلى بعضها بعضاً بحبال البردى ولذلك كانت تمتص الماء بسرعة . . .

غادرت جزر هنود أورو إلى الساحل الشمالى لبيرو فأماى متسع من الوقت قبل أن يصل بناء القارب إلى القاهرة . . . وفى جنوب أمريكا رأيت أجمل هرم بنى بطوب محروق . وفى وادى تشيكاما *chicama* نهض الهرم من وراء الجبال الرملية فى قلب الصحراء . وقد سطا عليه سارقو القبور فأحالوه إلى ما يشبه فوهة بركان . ولعل أغرب ما فى الأمر أن هناك تشابهاً محيراً بين هذا الهرم وبين أقدم أهرام فى وادى النيل من النواحي المعمارية والفلكية وكذلك فى الحجم ومواد البناء . وكان هذا الهرم قد بناه أحد الكهنة الملوك عند ما بدأت الحضارة تزدهر فى بيرو وقبل أن تعقب حضارة الإنكا حضارة شيمو . وكان هذا الشعب الذى بنى أكبر هرم على الساحل هو شعب موشيكا . . .

إذن فمن هو شعب موشيكاً هذا الذى بلغ شأواً عظيماً فى المعرفة والحضارة ؟ يقول العلماء إن اتصالاً ما قد تم بين جالبي الحضارة إلى الساحل الشمالى لبيرو وبناء الأهرامات فى المكسيك القديمة . ولكنهم لا يعرفون شيئاً عن أصلهم . وبين خرائبهم صور منحوتة على أوانى الفخار والسيراميك لرجال ملتحمين وأفراد لهم قسيمات قوية لسكان البحر الأبيض المتوسط .

وبعض هذه الصور تشبه رجال البربر الذين يعيشون فى مراكش اليوم .

ومن هناك اتجهت نحو أهرامات المكسيك لأرى بنفسى ما حدث لأمريكا قبل أن يصل إليها كولمبس . فهذه البنايات الضخمة ، بمعابدها وأهراماتها ، هى مخلفات بشر مثلنا ، وصلوا إلى هذا المكان قبل كولمبس بألف سنة ، وأفسحوا لأنفسهم مكاناً فى الغابة الكثيفة ليستقروا على أرضها ويتخذونها مكاناً وملاذاً . فإذا تأملت فى هذه المباني الضخمة وجدت أنها صممت بطريقة هندسية رائعة ، وعلى يد مهندسين معماريين غاية فى البراعة . وفى وسط الغابة بنى أهرام ضخمة . فهل قرر الهنود العاديون أن يضعوه هناك ؟ أو أن أناساً آخرين غير الصيادين البدائيين جاءوا من سيبيريا واختلطوا مع سكان المكسيك الأصليين وبنوا هذا الهرم فى الغابة ؟ كان كثيرون يظنون أنه لم يستطع شعب متحضر قبل كولمبس أن يقوم بهذه الرحلة ويصل إلى أقاصى الأرض . ولكن الذين استطاعوا ذلك كانوا من المتوحشين . وكان من الطبيعى أن البشر الذين خضعوا

لنفس عوامل البيئة قد خلقوا أشياء كانت تشبه بعضها بعضاً في أماكن متفرقة من العالم . وكان من الطبيعي أن الناس في كل من مصر والمكسيك قد وضعوا الأحجار بعضها فوق بعض حتى كونت أهرامات . . .

ولكن في هذه الغابة لا يرى الإنسان عادة أثراً لصخور . . . فمن أين جاءت هذه الصخور إذن ؟ وكيف عثر عايتها مهندسو هرم بالنكى Palenque ؟ . . . ربما حفروا أرض الغابة فعثروا على أحجار أو ربما ذهبوا إلى مكان قصي حيث نقلوا حائطاً من حوائط الجبل . . .

وفي بيرو هل كان من الطبيعي أن يضعوا حجراً فوق حجر ليقيموا أهراماً على بعد ألف ميل من الصحراء ؟ كان لا بد لسكان بيرو أن يذهبوا بعيداً إلى جبال الأنديز ليعثروا على محاجر . وفي وادي موتشيكا حيث كنا ، كانت الحجارة من نوع رديء مما اضطر بناء الأهرامات أن يصنعوا ستة ملايين قالباً من قوالب الطوب لكي يبنوا هرمهم الذي تربع على مساحة قدرها أربعة آلاف ياردة مربعة ، وكان ارتفاعه مائة قدم . وفي بيرو كانت هناك أهرامات أخرى ضخمة كهرم « سير وكولورادو Cerro Colorado وفي بعض الحالات كانت قطع كبيرة من الحجارة تزن الواحدة من عشرين إلى ثلاثين طناً تنقل من محاجرها ، لمسافة خمسين ميلاً من المكان الذي بنيت فيه هذه الأهرامات . ولا يعرف إنسان اليوم حقيقة البنائين أو المهندسين المعماريين الذين أقاموا هذه الأهرامات في الغابة . فأطلق عليهم المؤرخون ورجال الآثار أهل الأولك Olmecs وكانت وجوههم مستديرة وأنوفهم مفلطحة وشفاههم غليظة أشبه بالزنوج ،

فى حين كان بعضهم أصحاب ملامح دقيقة وأنوف معقوفة ولحى طويلة أشبه بالساميين . . .

ومن غرائب الأمور أن أهل الأولك بنوا بيوتًا حجرية فى داخل الغابة . وفى الوقت نفسه بنوا بعض أهرامات من الطين — اللبن — ثم أكبر أهرامات بيرو ، ومثل تلك الأهرامات التى بنيت فى مملكة ما بين النهرين ومثل بعض الأهرامات التى بنيت فى وادى النيل . . .

وفى عام ١٩٥٢ عثر على اكتشاف خطير فى هرم الغابة هز الدوائر العلمية فى العالم كله ، وصدع بعض النظريات التى وضعها علماء الآثار عن حقيقة هذه الأهرامات . فقد عثر فجأة وبدون مقدمات على باب سرى ظهر خلفه ممر ضيق يهبط عندئذ درج حجرى ويمر خلال مركز الهرم . وفى نهاية الدرج ظهر باب حجرى ضخم فتح على مقبرة عظيمة بداخلها تابوت حجرى ضخم حيث كان يرقد فيه ملك كاهن عملاق . تمامًا كما كان الحال فى مصر القديمة .

وكان هذا الاكتشاف مثيراً لأن أهرامات المكسيك كانت تخلو من غرف الدفن . لذلك رفضت فكرة أن اتصالاً كان قد تم بين شعوب المكسيك وفيما وراء المحيط الأطلنطى . وكان الشبه بين الأهرامات طفيفاً . فالأهرامات التى بنيت على جانبي الأطلنطى كانت لها أهداف مختلفة وأشكال مختلفة أيضاً . ففي المكسيك وبيرو كانت الأهرامات لها جوانب مدرجة أما فى مصر فقد انحدرت جوانب الأهرامات بنعومة (١) . . .

---

(١) بدأ بناء الأهرامات فى مصر على هيئة مصاطب واستمر الحال كذلك نحو ألف سنة .  
(الناشر)



ولكن هذا القرار الذى اتخذه العلماء لم يكن صحيحاً لأن فى مصر أيضاً أهرامات مدرجة وأنها أقدم الأهرامات بل هى الهيئة الأصلية لها ، ليس فى مصر وحدها ، بل فى بلاد ما بين النهرين . وأن البابليين ، جيران مصر ، بنوا أهرامات مدرجة ثم أقاموا معبداً فوقها تماماً كما كان الأمر فى المكسيك . . . وهناك وفى قلب هرم مكسيكى يرقد كاهن ملك ادّعت عائلته أنها من سلالة الشمس ، فوضعوا على قبره حجراً عليه إله الشمس ، فى حين صمم المهندسون المعماريون الذين بنوا الهرم قاعدته بدقة فلكية تامة ، طبقاً لحركة الشمس تماماً كما كان الحال فى مصر . كما أنه وضع فى تابوت حجرى ضخّم وثبت على وجهه قناع رائع كما كانت العادة فى كل من بيرو ومصر . ولم يكن القناع مصنوعاً من الذهب بل من حجر اليشم والعينان من المحار وإنساناهما من حجر السيج وهو حجر زجاجى أسود بركائى . وكان صاحب التابوت يعتقد فى الحياة الأخرى بعد الموت لذلك وضعت بجواره مجموعة نادرة من الأواني والأطباق للأكل والشرب ، وقد زينت بالتيجان وقلايدات للرقبة وأساور وحلقات مصنوعة من الصدف والأحجار الكريمة . وطلّى التابوت من الداخل باللون الأحمر ( السلاقون ) وكانت بعض بقايا القماش لونها أحمر وهى ملتصقة بالعظام . وعلى طريقة المصريين أغلق التابوت بغطاء صنع من قطعة حجرية واحدة . وكان وزنه عدة أطنان وعرضه بارتفاع إنسان وأطول منه بضعفين . وكان الغطاء وجدران التابوت مزينة بأشكال الملوك الكهنة السابقين يرتدى بعضهم الزى الرسمى أو لحى مستعارة . . .

وكانت العادة تنص على أن يقتل ستة من الرجال ليصبحوا عبيداً للملك في العالم الثاني ، ثم يغلق باب المقبرة بإحكام بصخرة عظيمة ويبنى درج صخري سرى في داخل الهرم يملاً فيما بعد بالصخور وقطع الحجارة إلى الأبد .

وفي داخل الهرم وخارجه راعى ملك الشمس ، وطبّاق ، طقوس الدفن المصرية القديمة بحذافيرها . والاختلاف الوحيد بين بناء الأهرامات في مصر والعراق أن أهل ما بين النهرين كانوا يقيمون معبداً صغيراً فوق قمة الهرم عليه نقوش هيروغليفية تماماً كما كان الأمر في المكسيك . . . .  
ولعل أغرب ما في الأمر أن مهندس هذا الهرم لم يفته أن يكيفه من الداخل بفتحة كانت تدخل باستمرار هواء نقيّاً إلى التابوت كما هو الحال في أهرامات مصر . . .

\* \* \*

انتشرت أنباء الرحلة في كل مكان ، وأن حزم البردى قد وصلت إلى القاهرة وأن العمل أوشك أن يبدأ . وفي مدينة نيويورك وصلتني برقية من زوجتي فزعت لها أشد الفزع كانت البرقية تقول : « قبض على عبد الله . . . بناء القارب . . . في بول . . . اتصل بي تليفونياً وفي الحال . . . » .  
وعرفت من زوجتي التي تقيم في إيطاليا أن خطاباً وصلها من عبد الله يقول فيه إنه لم يستطع الاتصال بعمر وموسى لأن السلطات اعتقلته . ووقعنا في ورطة في خلال أحد عشر أسبوعاً لا بد أن ننزل القارب إلى

الماء قبل موسم الأعاصير . وهناك عند سفح الأهرامات المصرية كان الرجال ينتظرون قدومنا بنافذ صبر . ولا بد والحالة هذه أن يذهب أحدنا إلى تشاد ليحضر بناء القارب إلى موقع البناء . ورأيتني مضطراً أن أقوم بهذه الرحلة لأبحث عن عبدالله . وأخيراً عثرت عليه وبعد مجهود مضمن عنيف ذهبنا إلى قرية بول لإحضار عمر مبولو وموسى باومى وإعداد ما يلزم لسفرهما معنا إلى مصر . . . .

وفي مطار القاهرة كان الاستقبال رائعاً حضره مندوبون من وزارة السياحة . وفي الطريق إلى الأهرامات كان عبد الله ورفيقاه في حيرة مما يرونه من حضارة وبنائات ضخمة . . . .

وفي المساء خرج ثلاثتهم ليشاهدوا قمم الأهرامات وهي تلمع في ضوء الشمس الغاربة . وفي الصباح نهضوا مبكرين حيث وقعت أنظارهم في الحال على حزم وأكوام البردى ، فنشطوا للعمل بعد أن اختاروا مكاناً بين الخيام ، لبناء قارب طوله خمسون قدماً وعرضه ست عشرة قدماً . ولكن صادفتنا مشكلة المياه وبحث الرجال الثلاثة عن بحيرة قريبة لغمس أعواد البردى فيها قبل ثنيها أو طيها . فبنينا لهم حوضاً من الماء فشرع كل من موسى وعمر في بناء القارب بجد ونشاط . واستمر العمل عدة أيام طبقاً لمواصفات معينة وتصميمات فرعونية خاصة وافق عليها الصانعان بعد مجهود مضمن من الإقناع ، وظهر القارب في آخر الأمر كواحد من القوارب المصرية القديمة وكأنه هلال أمام الأهرامات العظيمة . . . .

وفي شهر أبريل بدأت الشمس تلهب رمال الصحراء ، والقارب

العظيم الذى تم صنعه ، وانهاك على المكان ألوف من السائحين الذين وفدوا على مصر لرؤيته . لقد صنعنا قارباً من الورق فأى شرارة قد تأتى عليه فى لحظات ، لذلك وضعنا لافتات باللغتين العربية والإنجليزية تمنع التدخين منعاً باتاً . . . .

وفى مصر أيضاً صنعنا مقصورة القارب من القش . وفى أثناء صناعة القارب كنا نذهب بين وقت وآخر إلى القبور العتيقة لدراسة تفاصيل الرسومات القديمة . وكانت صور السفن الخشبية الطويلة تكشف دائماً عن كتلة من الخشب ترتفع فوق سطح القارب ، وكان لا بد من إقامة مثل هذا الصاري فوق قاربنا لربط مؤخرته به . . . .

وعلى سطح قوارب البردى المصرية القديمة كانت توجد دائماً سلال من الفاكهة والخبز والقمطائر ، وأوان فخارية ، وصناديق وطيور وقرود وصيادون ونجار وبنجار ، وهنا كان فرعون مصر العظيم مع ملكته يجلسان على العرش الملكى . وأمامهما السقااة على استعداد ملء كأسيهما . وفى بعض النقوش كان الفرعون يرمز إليه بعملاق من العمالقة فى طول القارب ذاته . . . . وكانت قوارب البردى الحميلة تزين برعوس الحيوانات المحنطة وقد طليت صواريخها ومجاديفها . . كل ذلك أبدعه المهندس المعماري المصري القديم . . . .

كانت الحجارة فى مصر كثيرة لبناء جبال عظيمة . وكذلك نبات البردى كان وفيراً لبناء قوارب كبيرة . وكان القارب الذى بنيناه صغيراً بالمقارنة

إلى ضخامة قوارب مصر القديمة ، بل شعرنا بنقصنا وضآلتنا عند ما  
خرجنا به إلى أقدام أبي المول العظيم . . . .

وبعد أن تم بناء القارب طرت إلى المغرب لإعداد ما يلزم للإبحار به  
من ميناء صافى<sup>(١)</sup> . وبعد عودتي إلى مصر كان القارب قد احتوى على ثمانين  
ألف عود من أعواد البردى . ولم يبق منها غير ستة أعواد تناثرت على رمال  
الصحراء . . . . وفى يوم ٢٨ أبريل أى بعد مضى اثنين وعشرين عامًا على  
بعثة « كون تيكى » Con - Tiki التى عبرت الباسيفيكي بدأ بالفعل نقل  
القارب فى احتفال مهيب وكأنه قارب نوح إلى مدينة الإسكندرية لينقل  
إلى ميناء أسفى . . . .

---

( ١ ) اسمه المغربى « أسفى » .





## الباب السابع

### في عرض المحيط الأطلنطي

في ميناء صافي انبعث رائحة الأطلنطي الذي سوف نعبه بالقارب  
رع . ووقفنا أمام المبنى القديم الذي احتله البرتغاليون للدفاع عن الميناء في  
عام ١٥٠٨ بموافقة زعيم البربر يحيى بن تافوفت Yahia Ben Tafouft  
وبين جدران القلاع التي بنيت في القرون الوسطى ، وبين القلعة البرتغالية  
التي يبلغ عمرها أربعمئة وخمسين سنة من الزمان ، كان يعيش مجتمع  
من الصيادين العرب والبربر ، يعملون في همة ونشاط ، في أكبر تجارة  
للسردين في العالم وقد انتشرت قوارب الصيد الملونة في الميناء ، وظهرت  
البواخر الكبيرة من عابرات المحيط وهي تستبدل البضائع مع مراكش أهم  
مدينة في البلاد . . .

لقد استخدم البربر هذا الميناء لمدة ألف عام قبل مجيء البرتغاليين ،  
كذلك استخدمه الفينيقيون لمدة ألف عام آخر قبل ذلك . ووراء هذا  
الميناء يدفع تيار كناري Canary كل شيء في طريقه إلى الجانب الآخر  
من الأطلنطي ، لذلك وقع اختيارنا عليه ليدفع بقارب رع إلى أمريكا .  
وكل الذين عبروا مضيق جبل طارق ، أعمدة هرقل القديمة ، قد وجدوا  
مأوى في صافي كما فعل الفينيقيون من قبل . .

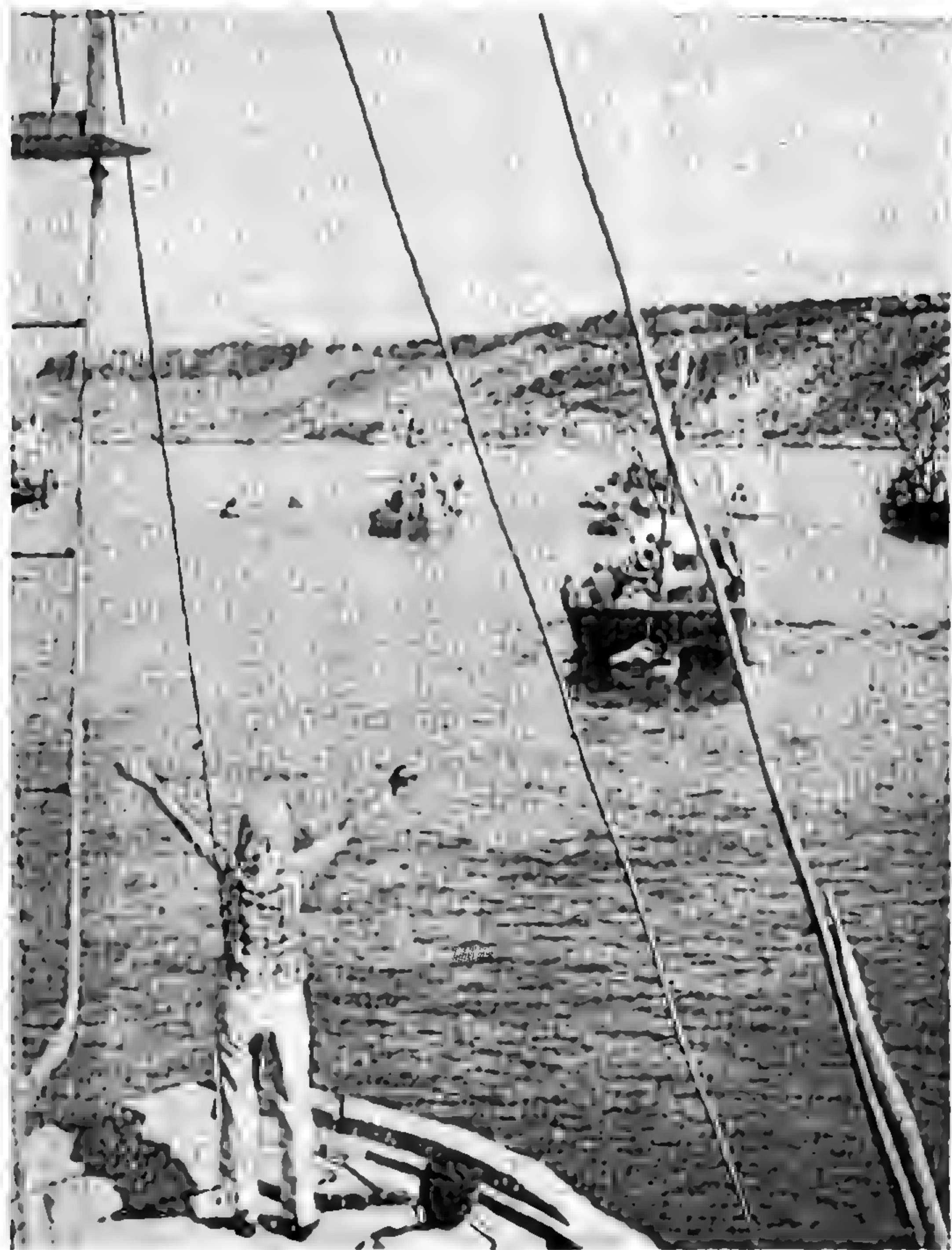
وكان من الممكن أن يشق قارب ورقى طريقه إلى صافي عن طريق

الساحل الملتوى للقارة الأفريقية . ولم يشك إنسان أن القارب سوف يطفو ،  
ما دام سيكون قريباً من الشاطئ لسحبه وتجفيفه يوماً بعد يوم . وكان  
السؤال : كم من الزمن سيطفو القارب إذا ترك الساحل وبدأ الإبحار في  
البحر المفتوح ؟

كنا نعرف أن قوارب البردى كانت تستخدم على طول ساحل الأطلنطي  
فيما وراء جبل طارق . بل لا يزال يستخدمها الصيادون الذين يعيشون في  
ظلال أطلال وخرائب « نوراغي » Nuraghi الغامضة على الساحل الغربي  
لجزيرة سردينيا Sardinia . . . . وعند مصب نهر لوكاس Lucus  
على ساحل الأطلنطي بين جبل طارق وصافي عاشت قوارب البردى كأداة  
للصيد ، ووسيلة للانتقال ، حتى أحل البرتغاليون محلها القوارب الخشبية في  
بدء هذا القرن . وفي عام ١٩١٣ وجد أعضاء البعثة الإسبانية العلمية أن  
قبيلة « الجلوت » El Jolot Tribe كانت تبني قوارب البردى التي تنقل  
خمسة أو ستة من الصيادين ويديرونها بالمجاديف أو الأشرعة . وقالوا  
إنها نفس القوارب التي ظهرت في مصر القديمة ، وإنها نفس القوارب  
التي تستخدم حالياً في أعالي النيل ، وفي تشاد وفي بحيرة تيتيكاكا Titicaca  
في جنوب أمريكا . ودعت البعثة علماء أصول السلالات البشرية للبحث  
عن أصل الصلة أو العلاقة التي وجدت بين بناء القوارب في هذه الأماكن  
المتفرقة النائية عن بعضها بعضاً . . . .

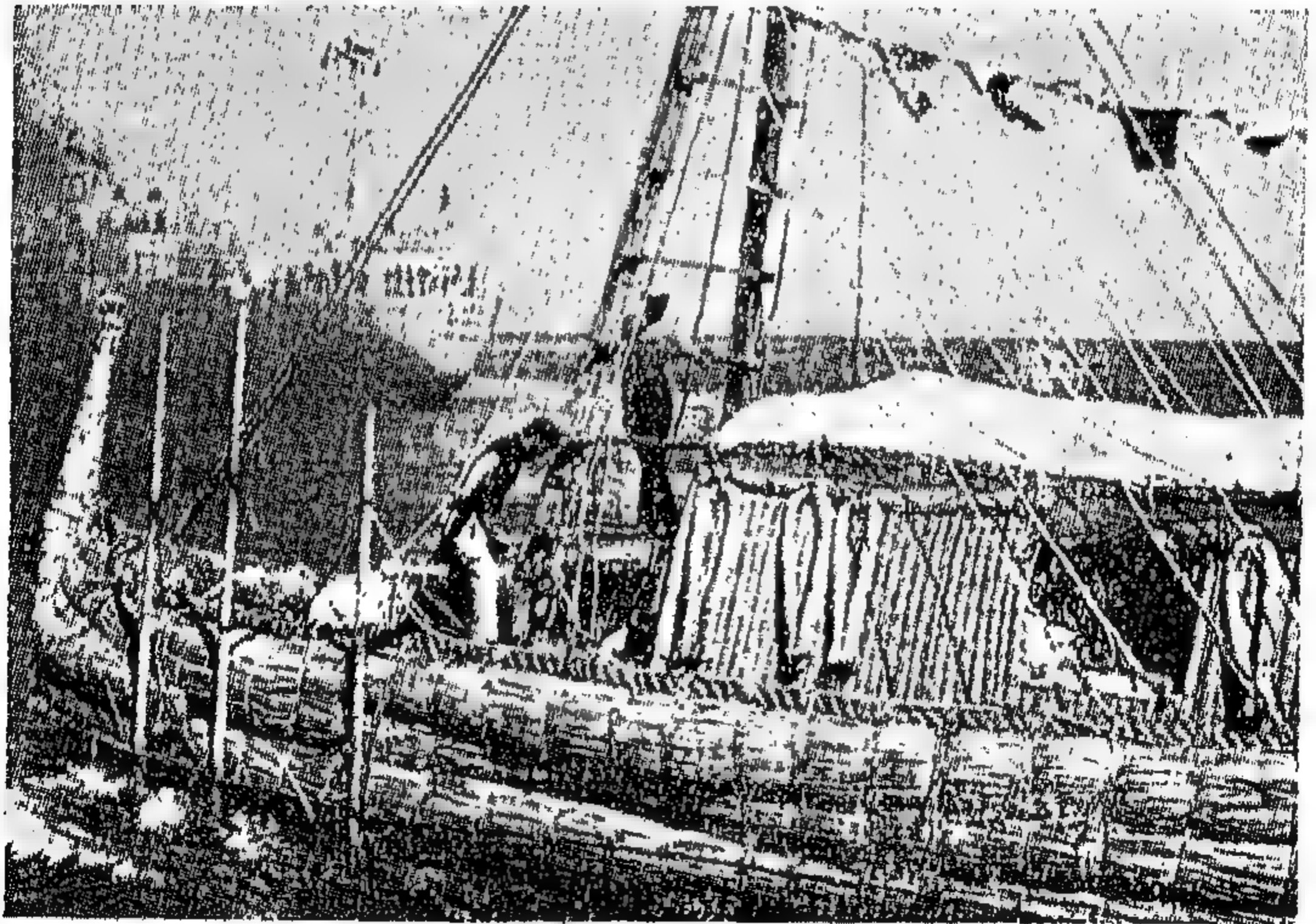
\* \* \*

جاء الناس من كل صوب لرؤية القارب الورقي الذي بناه أصدقاؤنا



القارب زرع وهو يبحر من ميناء آسنى بالمغرب وزوجة ثور هايردال تودعه

من تشاد ، وقد أصبح على أتم استعداد للهبوط إلى ماء البحر في ميناء صافى القديم . وحاول عبد الله أن يشرح لإخوانه من العرب والبربر مشروعهنا الكبير ، أو مخاطرتنا العظيمة ، بلهجة عربية ، أما موسى وعمر فقد عادا إلى تشاد . وفى صافى عمل عبد الله على ربط القارب الورقى الذى تصدع قليلا فى طريقه من القاهرة إلى الإسكندرية ، ومنها إلى صافى . فقد تفلطحت المقدمة والمؤخرة قليلا . وعلى مرور الأيام جفت أعواد البردى وازدادت قوة وحدة بعد أن امتصت هواء البحر المشبع بالرطوبة ...



القارب رع وعليه أعلام الدول التى اشترك أعضاؤها فى المغامرة

وفي يوم ١٧ مايو ( عام ١٩٦٩ ) أنزل القارب ربح إلى البحر في احتفال عظيم . ودشن بلبن الماعز الشعار القديم لمراكش للكرم وأطيب التمنيات . . . .

وفي اللحظة التي انزلق فيها القارب إلى الماء رأيت أحد المصورين يتقدم نحوي ويقول :

— ماذا سيكون شعورك لو انزلق القارب وغاص إلى الأعماق ؟  
لم يكن هناك وقت للرد عليه ، فقد انفصل القارب من الإطار الذي أنزل عن طريقه ، وطفا فوق الماء كالأوزة السمينة . . . وتنفست الجموع الصعداء وبدأت علامات الارتياح ترسم فوق كل وجه من الوجوه . . .

مكثنا بالقارب أسبوعاً كاملاً في مياه صافي حتى يمتص الماء ويتشبع به . وخلال هذا الأسبوع التأم شمل البحارة . وإن كانت الحقيقة أن بحاراً واحداً حقيقياً كان بينهم ، هو « نورمان بيكر » Norman Baker من الولايات المتحدة فقد عهد إليه بالملاحة ، وإدارة جهاز اللاسلكي . أما « يوري ألكسندروفيتش » Dr. Yuri Alexandrovich الروسي فكان طبيب البعثة ، وسبق أن قضى عاماً بأكمله في محطة التجارب في فوستوك Vostok التي ترتفع عن مستوى البحر بعشرة آلاف قدم بالقرب من القطب الجنوبي حيث تهبط درجة الحرارة تحت الصفر بمائة درجة فارنهایت . . .

أما الإيطالي كارلو موري Carlo Mauri فكان مصوراً سينمائياً ، لا خبرة له بالبحار على الإطلاق . هوايته تسلق الجبال المختلفة في العالم .

وكدنا نفقد صديقنا المكسيكى رامون الذى أجريت له عملية جراحية يوم  
نقل القارب من ميناء الإسكندرية . وجاء بدلا منه دكتور سانتياجو  
جنوفز Dr. Santiago Genoves عالم التاريخ الطبيعى للأجناس البشرية .  
وعهدنا إليه بالأواني الفخارية التى صنعنا منها ١٦٠ آنية فى المتحف  
المصرى . ولم تكن له خبرة بالبحار أيضا . . .

وكان عبد الله جبرين أقل الناس معرفة بالبحار عن زميليه يورى  
وسانتياجو ، بل لم يعرف أن ماء البحر مالح . . . وقد انضم إلينا بصفته  
خبيراً فى البردى . وكان أحب الناس إلى ، فقد قضيت معه وقتاً فى تشاد  
وسبعة أسابيع وراء الأهرامات . وكان عبد الله مزواجاً . . . فقد تزوج  
بامرأة من تشاد ، وأنجب منها ثلاثة أطفال ، وأخرى تزوجها فى اللحظة  
الآخيرة قبل مغادرته البلاد ، وتزوج بثالثة من القاهرة . لذلك لم نتركه  
يفرّ من أمامنا فى مراكش حتى لا يتزوج برابعة فتزداد المشاكل اتساعاً ! . .  
أما أصغر أعضاء البعثة فكان مصرىً يدعى جورج سوريال وهو  
مهندس كيميائى ممتاز ومن الضفادع البشرية المحترفين ومن أبطال الجودو  
فى مصر وأفريقيا . ومنذ تخرجه لم يشغل منصباً من المناصب ، بل قضى  
وقته بين نوادى القاهرة وأمواج البحر الأحمر . وقد اعتاد أن يدخل الرعب  
فى نفوس أصدقائه عند ما يحطم ستة قوالب من الطوب بضربة واحدة من  
يده . وبساقه علامة عضه سمكة قرش . وكان الرجل الوحيد الذى عرفت  
عنه أنه يستطيع أن ينزل إلى الماء وإلى كهوف ثعابين السمك القاتلة  
ويغريها بأشماك يضعها فى فمه وهو يربت على الوحوش الضارية وكأنها



حيوانات مستأنسة مدللة ! ! .

لم يكن جورج هو الآخر بحاراً ، ولكنه كان يعرف البحر فقط من الأعماق . وعند ما انضم إلينا قال إنه يشعر بسعادة طاغية تحت الماء . وجورج ينحدر من أصلاب العائلات القبطية القديمة في مصر . وكان ينام كالمومياء لمدة أربع عشر ساعة في خيام الأهرامات ، وفي الفجر



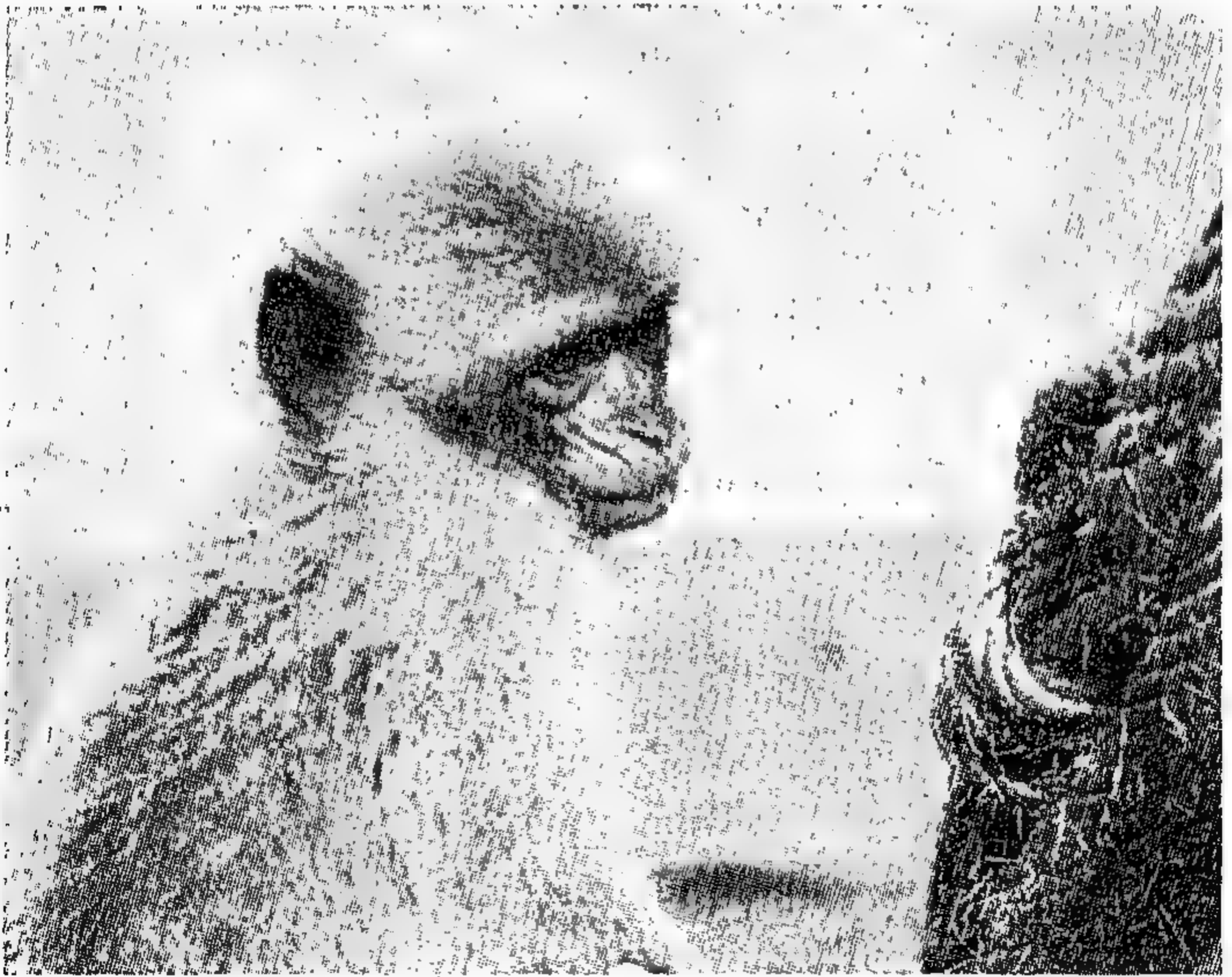
سندوق به حاجيات البحارة يدفع به بحاران إلى داخل المكان المعد لذلك .

يستيقظ ليقوم بنصيبه في عمل النهار . . .

ومرت الأيام والقارب يمتص المزيد من مياه البحر . وكان وزن القارب وحباله اثني عشر طنًا ، ثم أضيفت إليه أطنان أخرى ، ومع ذلك ظل صامدًا طافيًا كجزيرة من الجزر الصغيرة . وكان أثقل ما فيه صاريه الضخم وطن الماء العذب المحفوظ في الأواني الفخارية . وكان كل يوم يقضيه القارب في الماء يضيع من حياته طبقًا لما كان يقوله الخبراء . وموسم الأعاصير على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي يقترب هو الآخر بخطى حثيثة .

قررنا بدء الرحلة بدون أدنى تأخير . وانضم إلينا عدد من القباطنة لتحريك القارب ووضعها في الخط الصحيح بعد أن أمضى ثمانية أيام بأكملها في ماء البحر أو أكثر من نصف حياته كما كان يقول الخبراء . وفي الساعة الثامنة صباحًا من يوم ٢٥ مايو ارتفعت الأعلام فوق السفينة رع وهي تتهدى في ثقة وإيمان متجهة نحو مياه الأطلنطي ومن حوله الرئيس فتج أو العملاق الأسود في قوارب مع عدد من معاونيه ليخرج رع من الميناء . وانضم إلى القارب قرد صغير جاء من جبال أطلس فأطلقنا عليه اسم « صافي » . وتعلق القرد بصاري القارب ولم يهبط منه إلا بعد وقت طويل . . . وكانت لحظات الوداع مثيرة ، ونحن نهبط إلى سطح القارب واحدًا وراء واحد . وانطلقت صفارات السفن من حولنا ، وتعالى أصوات المودعين كقصف الرعود ، كما اندفعت خلفنا مراكب الصيد واليخوت ، ومن فوقنا طائرة السفارة ، وأخرى هليكوبتر جاءت من العاصمة الرباط .

ولأول مرة رفعنا شراع رع الضخم الثقيل والمصنوع من القماش المصرى  
القوى . وكان ارتفاعه ٢٦ قدماً وعرضه ٢٣ قدماً . ودفعت الريح الشراع  
ثم أصبح ساكناً يعرض قرص الشمس الكبير كرمز لرع . . . . . بينما  
ارتفعت الأعلام حسب ترتيبها الأبجدي تشاد ، مصر ، إيطاليا ،  
المكسيك ، مراكش ، النرويج ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي  
وعلى الجانبين علم الأمم المتحدة . . . . .



القرد صافي رفيق الرحلة جاء من جبال أطلس

وقفت مع عبد الله نمسك بالدفة على الجسر الخلفى للمقصورة الرئيسية ننظر بشغف وإمعان إلى أمواج البحر ، وهى تتحطم عند أقدام الحاجز الصخري الكبير خارج الميناء على بعد مائة ياردة منا . فهل كنا نقرب من الأرض ؟ فألقينا فى الحال بحبل إلى أقرب مركب صيد فامتلاً الشراع بالهواء واندفع القارب بسرعة هائلة فى خط مستقيم ، خارجاً إلى البحر . وبهذه السرعة الجنونية كنا نخالف قوانين الطبيعة ، فكان أول ما حدث أن شبكة بها جراد البحر « لبستر » حى اندفعت نحونا واشتبكت بالدفة ، فكادت تتحطم . فعملنا فيها بخناجرنا وأنقلدنا الدفة من التحطيم . وكان الشئ الثانى الذى حدث أن أحد المجاديف الثلاثة التى ربطناها على جانب ر ع قد انفصل من مكانه بسبب السرعة الحاطفة . . . .

بدأت الريح تهب ببطء شديد . ثم ازدادت سرعتها تدريجياً . وكنا لا نزال قريبين من صافى ومن بيوتها المنتشرة هنا وهناك . وبدأنا نفكر ماذا سيحدث لدفة السفينة تحت وطأة هذه الريح العاتية . وكان أملنا الوحيد أنه وراء الساحل المراكشى سوف تحمانا الريح والتيار مباشرة من الساحل ، وبذلك نمضى أسبوعاً أو أسبوعين بدون أن تقلد بنا الأمواج إلى الصخور ، وكان خوفنا شديداً من الساحل وليس من البحر المفتوح . . . .

لقد صممنا دفة قيادة ر ع طبقاً للنماذج المصرية القديمة المختلفة ، وحاولنا أن نحصل على صار من خشب الأرز فى لبنان الذى كان يستعمله المصريون فى مجاديفهم وصواريهم . لكن جهودنا ذهبت أدراج



وحدة في المحيط .. القارب رع بعد أن غادر ميناء آسفي بالمغرب

رحلات رع

الرياح ، لأن ما تبقى من هذه الأخشاب النادرة قد حفظ في حديقة خاصة  
فاخترنا شجرة مصرية للصارى والمجاديف . . .

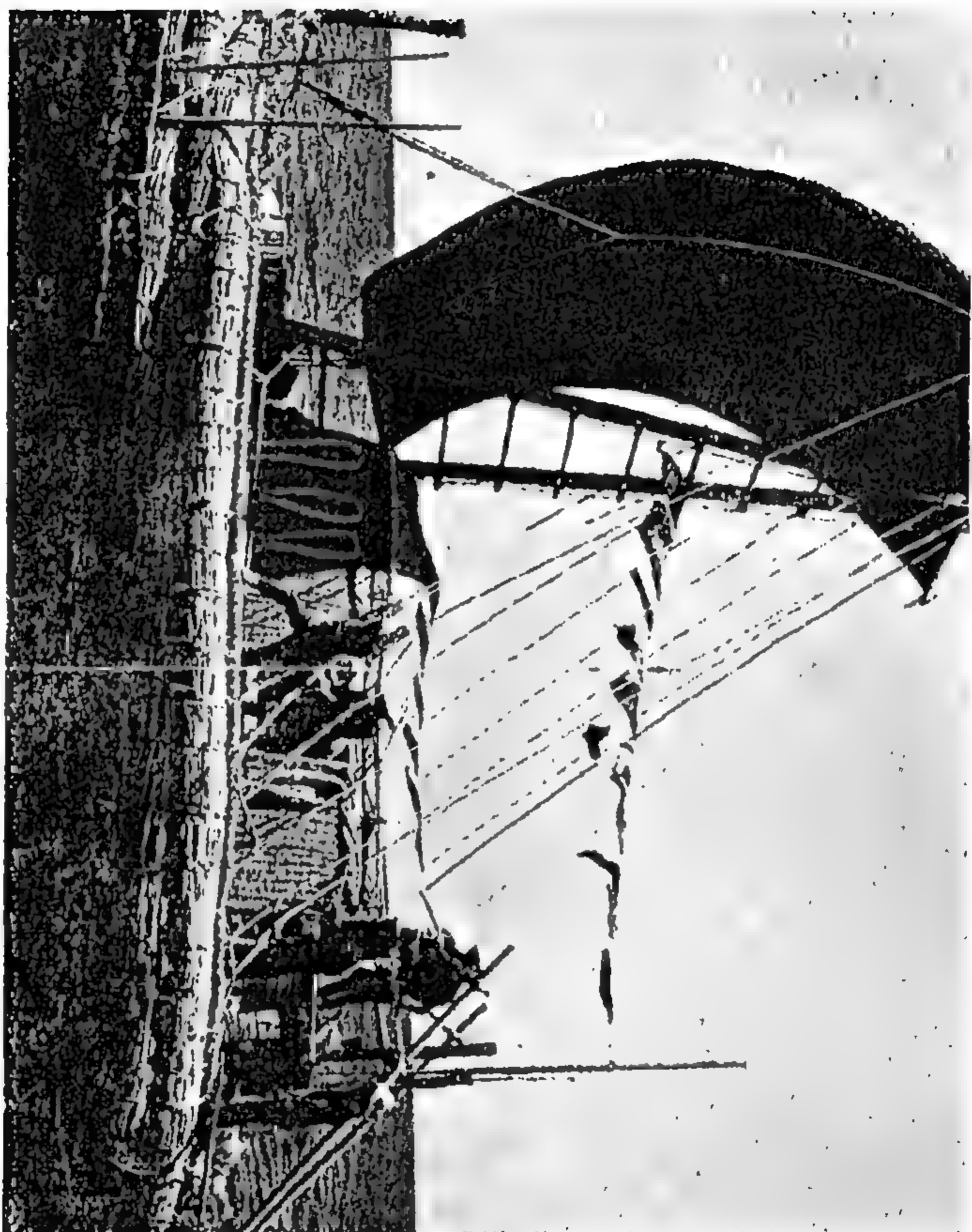
وصمد رع للريح ، واتخذ طريقه الصحيح ، واختفت من حولنا  
مراكب الصيد ، والهواة ، وكذلك الطائرات . وأصبحنا وحيدين في  
البحر المفتوح الممتد أمامنا . . . سبعة رجال وقرء وقفص خشبي به  
دجاج صيَّاح وبطة واحدة . . . وشاع الهدوء من حولنا وكأننا في فلك نوح .  
ازدادت سرعة الريح ، وبدأت الأمواج تعلو وتتجه نحو رع الذى  
رفع أحد جانبيه ليدع الأمواج تمر من تحته . وبين وقت وآخر كانت  
الأمواج تتجه مباشرة نحو المجاديف ، فيخفف عبد الله قبضته الحديدية  
عليها ، حتى لا يحطمها الضغط المائى العنيف . ومركل شىء على ما يرام  
وارتفعت معنوياتنا ، وبدأنا نحتسى القهوة وأصبحت الحياة فى البحر  
وكانها الحياة فوق قمم الجبال . . .

كانت سرعة رع لا تزيد على ثلاث عقد (١) فى الساعة . وبدأ  
الساحل يختفى رويداً رويداً ، وأشرفت الساعة على الثالثة والرابع مساء  
عند ما تركت الدفة أنا وعبد الله لرفيقين آخرين جاءت نوبتهما فى القيادة -  
فتناولها كل من كاراو وجورج . ودخل عبد الله المقصورة لينام . بينما  
رحت أفحص السطح المزدهم بالأواني الفخارية ، وجاود الماعز وسلال  
الحضراوات . وبعد أن قمت بهذه الجولة ، ذهبت لأنام لأول مرة بعد

---

( ١ ) العقدة = الميل البحرى أى ١٨٥٢ متراً تقريباً . (الناشر)





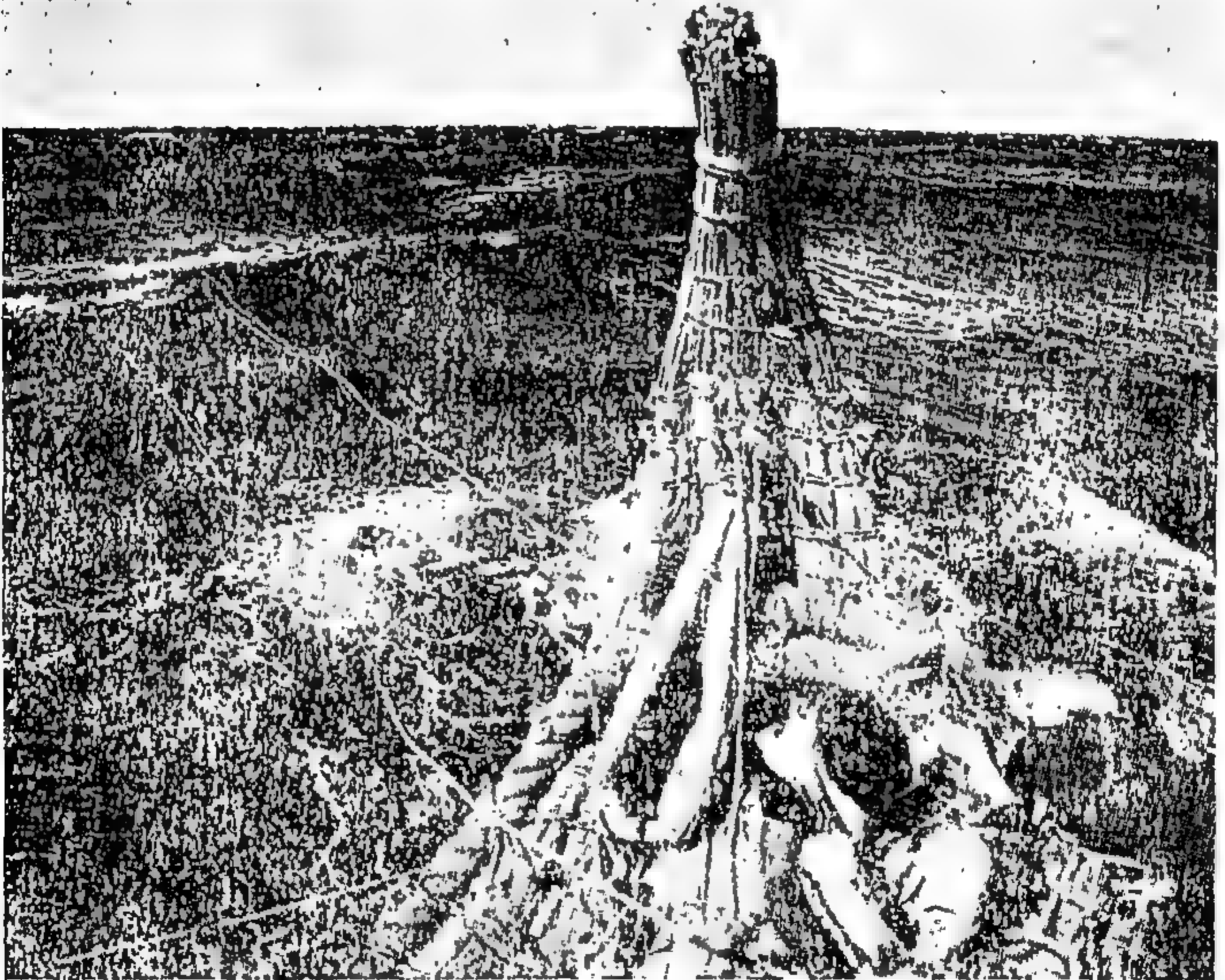
القارب العظيم دىع وعليه بحارة يحاولون حمايته من عنف الريح

عدة أسابيع من الشغل الشاغل ، والعمل المتواصل . وما كاد النوم يداعب جفوني حتى سمعت صوتاً يناديني . . . « ثور . . . ثور » فقفزت على الأثر ، وقد ازدحمت الأفكار السوداء في رأسي وأشار يوري نحو الدفة وقد تعلق بها الرجلان وهما يصرخان طلباً للنجدة . ومد جورج ذراعه وصرخ بالإيطالية : « إن الدفة قد تحطمت ! » ولحسن الحظ كنا قد ربطنا حبلاً بكل مجداف على الطريقة المصرية القديمة . . . ومع ذلك كان رع يتقدم ثابتاً في طريقه المرسوم . . .

لقد تحطم مجدافا الدفة ويمكننا استخدام الطريقة القديمة التي كان يستخدمها شعب الإنكا في قيادته للقوارب في داخل البحار . . . واستيقظ عبد الله من نومه هو الآخر على أصوات الضجيج ، وعلت ضحكاتنا . فقد أصبح القارب يقود نفسه بنفسه بدون حاجة إلى دفة ترشده وتقوده . وكان علينا والحالة هذه أن نجلس في المقصورة ونرقب البوصلة والأجهزة الملاحية الأخرى . . .

اتجه القارب نحو الجنوب الغربي في الطريق الذي كنا نريد أن نسلكه وهو نفس الطريق الذي اتخذته القارب طوعاً واختياراً ، وهو مرفوع الشراع ، شامخ الرأس ، ونحن على سطحه ننعم بلذة السفر كأى ركاب عاديين . وقلت لمن معي إن ما حدث لنا هو من تصارييف القدر وحسن الطالع . وكان علينا أن نفسح الطريق لأمنا الطبيعة تفعل ما تشاء ، وبرغم أنه كان لدينا دفة أخرى فوق القارب ، لكننا فضلنا ألا نضعها خوفاً عليها من التحطم لأننا بدأنا فعلاً نعبّر المحيط الأطلنطي العظيم . . .

وفي المساء كان اثنان من البحارة أو الرواد قد أصيبا بالمرض ، فالبحار الحقيقي ، زميلنا الأمريكي ، قد أصيب بالإنفلونزا ، والعالم سانتياجو أصيب بإكزيما جلدية . وكان القارب يتجه بجذ وإصرار نحو جزر كناري . وخاف الطبيب يورى أن يكون سانتياجو قد أصيب بمرض « تينا » Tinea وهو مرض قاتل منتشر في شمال أفريقيا . . .



اندفعنا بالقارب نحو الجنوب على طول الساحل  
الأفريقي بدون شراع أو مجداف

عند ما أرخى الليل سدوله علق كارلو مصباحًا فوق الصاري حتى لا تصطدم بنا السفن العابرة . وكانت وردية الليل مقسمة بين إيطاليا ومصر والنرويج . فروسيا قد بذلت أكثر مما يلزم في رعايتها للولايات المتحدة والمكسيك . وفضلنا أن نترك النجار الذي جاء من تشاد يستمتع بنوم هادئ طويل حتى يستطيع أن يصلح من أسر الدفة في الصباح فأهامة عمل مرهق شاق .

وهددتنا الرياح التي أخذت تهب من الشمال الغربي ثم من الغرب الشمالى ومكثت طول الليل وأنا أرقب الفئار البعيد ، وهو يتلأل بضوئه القوي في الظلام ، حتى اختفى هو الآخر تمامًا . . . وما دام الظلام قد حل لم أجرؤ على أن أغادر المكان . وكان على أن أحملق في الظلام باحثًا عن بصيص من نور ، وكلما رأيت نور قارب أوسفينة انخلع قلبي من مكانه فهل كان هذا الضوء منبعثًا من الشاطئ ، وهل نتجه بهذه السرعة والعنف نحو المباني ؟ وما دامت المياه من حولنا فلا خوف علينا من أى كارثة . . .

وعند ما ظهر الفجر في الشرق واختفت الأرض تمامًا من حولنا رأيت يورى وقد ارتدى رداء سميكيًا وجلس يبتسم ، فاندفع كل منا إلى فراشه لينام ، ولندع حزم البردى تشق طريقها في إصرار وعناد وثقة واطمئنان ، لم أكن وحدي الذى أرهقه التعب فلم يغمض لى جفن خلال يوم كامل . ومر اليوم الأول ونحن على القارب الورقى رع . . .





مجدافاً الدفة بعد أن تحطما وعبد الله جبرين يحاول تقويتهم بالحبال





## الباب الثامن

### من الساحل الأفريقي إلى ( كيب جوبي )

صاح الديك ، وشممت رائحة عشب جاف ، وقلت فى نفسى إننى لا بد فى ضيعة من الضياع . ولكن الحقيقة لم تكن كذلك لأننى كنت محمولاً على محفة . فقد استيقظت وأنا فى زكية النوم . وسمعت صوت المياه وهى تندفع من تحتى ، والأمواج ترعد فى أذنى . وحقيقة الأمر أننى كنت فى قارب . وفتحت عيني فرأيت الأمواج الزرقاء من خلال فتحات حائط البامبو . وكنت فوق القارب رع . أما رائحة العشب الجاف فقد انبعثت من الوسادة السميقة التى كانت ممشوة بالعشب المراكشى الجاف . . . .

وصاح الديك مرة ثانية ، فركعت على يدى وركبتي وزحفت إلى حائط البامبو ، لألقى نظرة ، فإذا بنا على مقربة من الساحل ، ولم أر غير أمواج تعلو وتهبط ، فواصلت زحفى إلى الأمام . وكان الهواء بارداً مثلجاً ، ويورى جالساً على الجسر وكأنه إسكيمو يدون بعض الملاحظات ولا بد أننا قد توغلنا فى البحر لأن ريح الشمال بدأت تهب ومعها ترتفع الأمواج إلى اثنى عشر قدماً فسألنى يورى : أين نحن الآن ؟ فقلت : الله وحده يعلم . واستيقظ عبد الله وتبعه جورج ، والتفطنا حول كاراو ،

الذى أعدد لنا طعام الفطور . وسألنى جورج بدوره : أين نحن ؟ . . . .  
فقلت لا أدري . أغلب الظن أن الساحل الذى نراه للقارة الأفريقية .  
فعاد يسأل : ولكن كيف عرف القدماء الطريق بدون بوصلة ؟ . . . .

فقلت : كانوا يعرفون الطريق أو الشرق والغرب بالنظر إلى الشمس ،  
وكذلك الشمال والجنوب من النجم القطبي و صليب الجنوب — أربع نجوم  
لامعة — وكذلك كانوا يعرفون خطوط الطول بقياس الزاوية من الأفق إلى  
النجم القطبي ، فهى دائماً على زاوية تسعين درجة نحو القطب الشمالى وهى  
تمس الأفق مباشرة إذا كنت تنظر من خط الاستواء . . . .

فإذا كنت عند درجة ٦٠ شمالاً فإن النجم القطبي يصبح على درجة ٦٠  
فوق الأفق . وإذا كنت على درجة ٣٢ فإن النجم القطبي يصبح أيضاً على  
درجة ٣٢ وهكذا . وإذا رأيت النجم القطبي تستطيع فى الحال أن تعرف  
خط الطول منه مباشرة . وكان الفينيقيون وسكان جزر شرق أستراليا والفايكنج  
يعرفون خطوط الطول بالتقريب ، وذلك بحساب المسافة تبعاً لسرعة السفن .  
وكانت تيارات المحيط غير المنظورة عاملاً مشكوكاً فيه ما داموا لا يرون  
الأرض . . . .

وفى المتحف المصرى بالقاهرة رأى جورج الأجهزة التى كان يستعملها  
قدماء المصريين منذ آلاف السنين لقياس زوايا الأجسام السماوية ، وكم  
كان النجم القطبي والشمس من أهم الأشياء فى حساباتهم الفلكية والمعمارية .  
كان شراب « الكركديه » المصرى الذى قدمه لنا كارلو ضمن طعام  
الفطور مثل شراب التوت الساخن وكان الخبز المصرى « كالبسكويت »

من أجود أنواع الخبز التي أكلناه ونحن على ظهر القارب رع . . . .  
وفي داخل القارب كان نورمان وسانتياجو لا يزالان مريضين . وكانت  
مشكلة سانتياجو أن الرطوبة في رع أصبحت عالية جداً ، مما جعل  
محتويات القارب كلها مالحة ، وكان جلده يؤلمه أشد الألم ومع ذلك كان  
الرجل يقاوم في صمت .

كان القارب رع في شكله الغريب يشبه وحشاً مائياً يمزج عباب الماء  
ويخيف كل من يعترض طريقه . وكان أغرب ما فيه صاربه الضخم  
وشراعه الكبير ، أو كأنه زعنفة سمكة تعلو وتهبط بين الأمواج . . . .

بعد مرور اليوم الأول صدمنا صدمة عنيفة عندما جاءنا النجار عبد الله  
ومعه شريط القياس وأخبرنا بأن جسر القيادة تقلص بقدر تمنى بوصات  
من حائط المقصورة ، وفي أماكن أخرى ضغطت بطريقة قد تؤذي أصابع  
القدم إذا سقطت بينها ، لذلك كان علينا أن نسير بحذر شديد ونرغب  
عن كذب تصرف القارب الورقي خلال الرحلة التي قد تمتد إلى أسابيع  
ونحن في يومنا الثاني . . . .

ومن خبرتي السابقة في رحلاتي على الطوف « كون تيكى » الذي عبرت  
به المحيط الباسيفيكي تعلمت أنه لا بد أن يلف كل واحد منا نفسه بحبل  
خوفاً من أن تقذفه الرياح إلى الموج ، لأن أى سباح ماهر لا يمكن  
أن يلحق بنا ، والرياح تدفع القارب دفعاً وبسرعة تكاد تكون جنونية .  
وبرغم أننا كنا نحفظ بصندوق كبير به أطواق نجاة إلا أننا ما كنا  
لنستخدمها إلا في حالة الطوارئ القصوى . وكان القانون الأول الذي

التزمنا به أن نظل على ظهر القارب . وألا نتحرك من مكان لآخر من غير هذه الحبال الملفوفة حولنا وفي نهاية الحبل خطاف . وطبقت هذا القانون بحرفيته بصرف النظر عن نوع الجو الذى كنا نعيش فيه كل يوم . . . .

بدأت الريح تهب بعنف ، وبدون دقة فى القارب . وكان من العسير علينا السيطرة عليه سيطرة كاملة . ومع ذلك فقد كان ( ر ع ) يجرى فى الاتجاه المضبوط . واشترك معى ( عبد الله ) ، بعد أن أدى فروض الصلاة ، فى ترميم المجاديف وربطها بأعمدتها . كما اشترك معنا ( كارلو ) . وبعد مرور وقت استطعنا أن نرمم المجداف الأول عندما ازداد هبوب الريح مما هدد بتحطيم الصاري من أعلاه . وحاولنا أن نطوى الشراع ، ولكننا عدلنا عن هذه الفكرة خوفاً من أن يطير ويقع فوق الأمواج . وكان علينا والحالة هذه أن نعيد القارب إلى طريقه الصحيح ، وذلك بتحويل الشراع .

وفوق السطح رأيت إبرة البوصلة تتحرك ببطء شديد . وبعد مجهود مضمّن عنيف بذله كل بحار فوق القارب الورقى استطعنا أن نتغلب على حدة الريح ، ونندفع به فى الاتجاه الذى يكفل لنا البقاء فوق صفحة الماء الهوجاء . وكنا فى بعض الأحيان نندفع بسرعة نحو الساحل الأفريقى ، ثم نجذب الحبال ، ونحول اتجاه القارب فى محاولة للعودة إلى الاتجاه الصحيح ، وبدون مجاديف الدفة كان القارب يرفض أن ينصاع لأوامرنا . وكان الشراع يدفع به نحو الجنوب الشرقى أو الجنوب الغربى ،

ولا شيء بينهما ، وكلما هاجمتنا الريح اتجه أنف ر ع نحو الجنوب الشرقي ، حتى أصبح الساحل الأفريقي البعيد قريباً منا . . . وهكذا رحنا نتخبط شمالاً ويميناً . . . كل واحد منا متعلق بحبل حتى القرد صافى اختار له حبلاً وتمسك به . . .

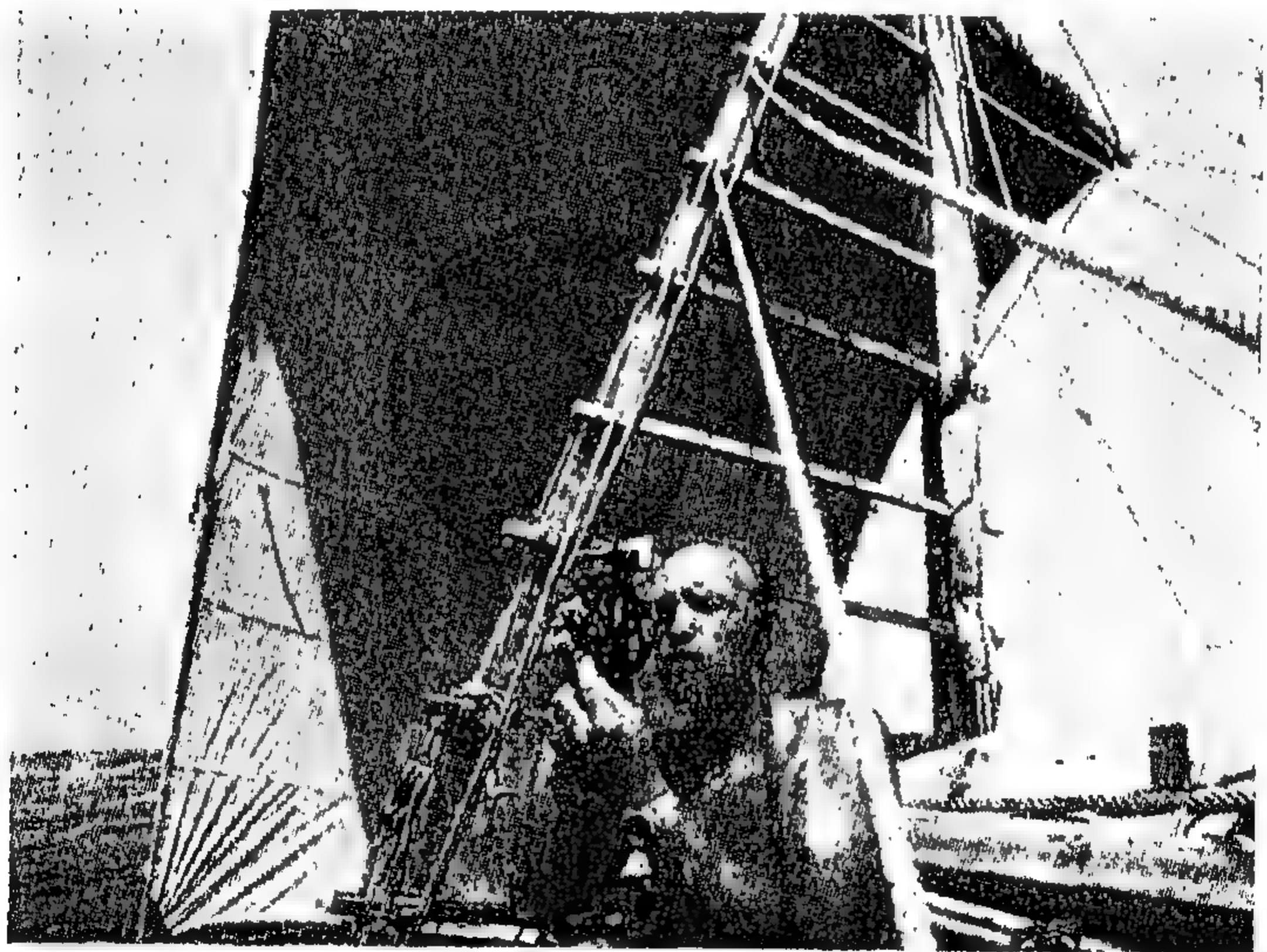
لم تهدأ ثائرة الريح طول اليوم فقررنا أن نحل الشراع أو نهبط به قليلاً . ولكن الريح لم تمهلنا فطار الشراع ، فتعلقنا به جميعاً خوفاً عليه من الضياع أو الطيران فوق أمواج البحر العالية . وتشقق الصاري من أعلاه ، وتفككت الحبال الملفوفة حوله ، وتبعثرت أكوام البردى هنا وهناك . حتى خيل إلينا أن القارب على وشك أن يتفكك . ولعل الغريب أن أقوى شراع في العالم ، ما كان ليتحمل عنف هذه الريح العاتية بدون أن يتحطم الصاري . . . وبعد مجهود مضمن استطعنا أن نجذب الشراع ، بوصة بوصة . وأثناء هذه المحاولة الجبارة فلت منا مجداف ، وسرعان ما احتوته الأمواج ، وقذفت به بعيداً عن القارب . وبعد أن استعدنا الشراع هدأ القارب وسار في طريقه المرسوم بعيداً عن الساحل .

ونظرت إلى كارلو وقلت : لقد أصبحنا من غير شراع ودفة . ولم يبق على هذا القارب شيء يستطيع أن ينفذ ما يصدر إليه من أوامر بشرية . . .

الطبيعة هي سيدة الموقف الآن تدير القارب حسبما تراه . . . وبمجرد أن نتوقف عن محاربتها فسوف نستريح ونمتع أنفسنا على قدر استطاعتنا . . .

وبدأنا ننظر حولنا . . . كل شيء هادئ . . . لا شراع ولا محرك  
ولا متاعب . . . وها نحن فوق قارب من البردى تتقاذفه أمواج المحيط  
وتياراته وتدفع به إلى الطريق الذى يحلو لها . . .

وزحف عبد الله على ركبتيه وجلس مسنداً ظهره إلى حائط المقصورة  
وجهاز الراديو الترانزستور على أذنه . أراد جورج أن يصطاد بعض  
السماك بينما تناول يورى برتقالة وراح يصنع لنفسه كأساً من الشراب.  
وأخذ كارلو يعبث بمحتويات السلال ليعثر على طعام مناسب واستلقى سانتياجو  
فى المقصورة يحصى القوارير التى كانت تحتوى على البلاح والزيتون والبيض . . .



نورمان البحار الأمريكى يعلن أننا نتجه نحو كيب چوبى وهو  
ينظر خلال جهاز قياس الزاوية



لم يعثر صاحبنا جورج على سمكة واحدة وسط ذلك الجسم المائي العظيم ، لكنه اقترح علينا فكرة ممتازة لماذا لا نقيم شراعاً ؟ فهما كان صغيراً فإنه سوف يدفع القارب . ونجحت الفكرة . وامتلاً الشراع بالهواء واتجهنا بالقارب نحو الجنوب الغربي ، ومرت خمس عشرة دقيقة بعد تركيب الشراع الجديد في عصر اليوم الثاني عندما هبت ريح شديدة صفعت الشراع صفعة شديدة تلتها صفعة أخرى كاد يتحطم بعدها الصاري وفي الصدمة الثالثة تحطم الصاري وسقط على السطح كأنه قطع من مخالب وحش غاضب . . . .

ومرت بقية اليوم بهدوء ونحن في داخل المقصورة بينما الريح تزار في الخارج . ولم يقع نظرنا على سفينة واحدة . وتقاسمنا الحراسة الليلية ، ولم نكن لنخاف شيئاً غير الاصطدام بالسفن أو الشاطئ ما دمتا ندور حول الشاطئ الأفريقي . وبعد منتصف الليل بنصف ساعة فقط استيقظت مذعوراً وقد انكفأ فوقى ككارلو ، وهو يهزنى بعنف ، وفي يده مصباح زيتي . وهمس الرجل في أذني بأن أضواء قد ظهرت على طول الأفق ، فقد جرفنا التيار جانباً . فأسرعت خارجاً ، ورأيت أنواراً كثيرة فلا بد أنه شاطئ مراكش . ويبدو أننا كنا نقرب من الأنوار بسرعة خاطفة . . . . وخرج الرجال الآخرون على الأثر ليروا ماذا حدث وكان علينا والحالة هذه أن نجذف بالقارب لإنقاذ أنفسنا من الاصطدام بالصخور . يبدو أنني وكارلو رأينا نوراً أخضر ظهر فجأة ثم تبعه نور أحمر وفهمنا على الأثر أن أسطولا مبعثراً من مراكب الصيد ذات القلاع

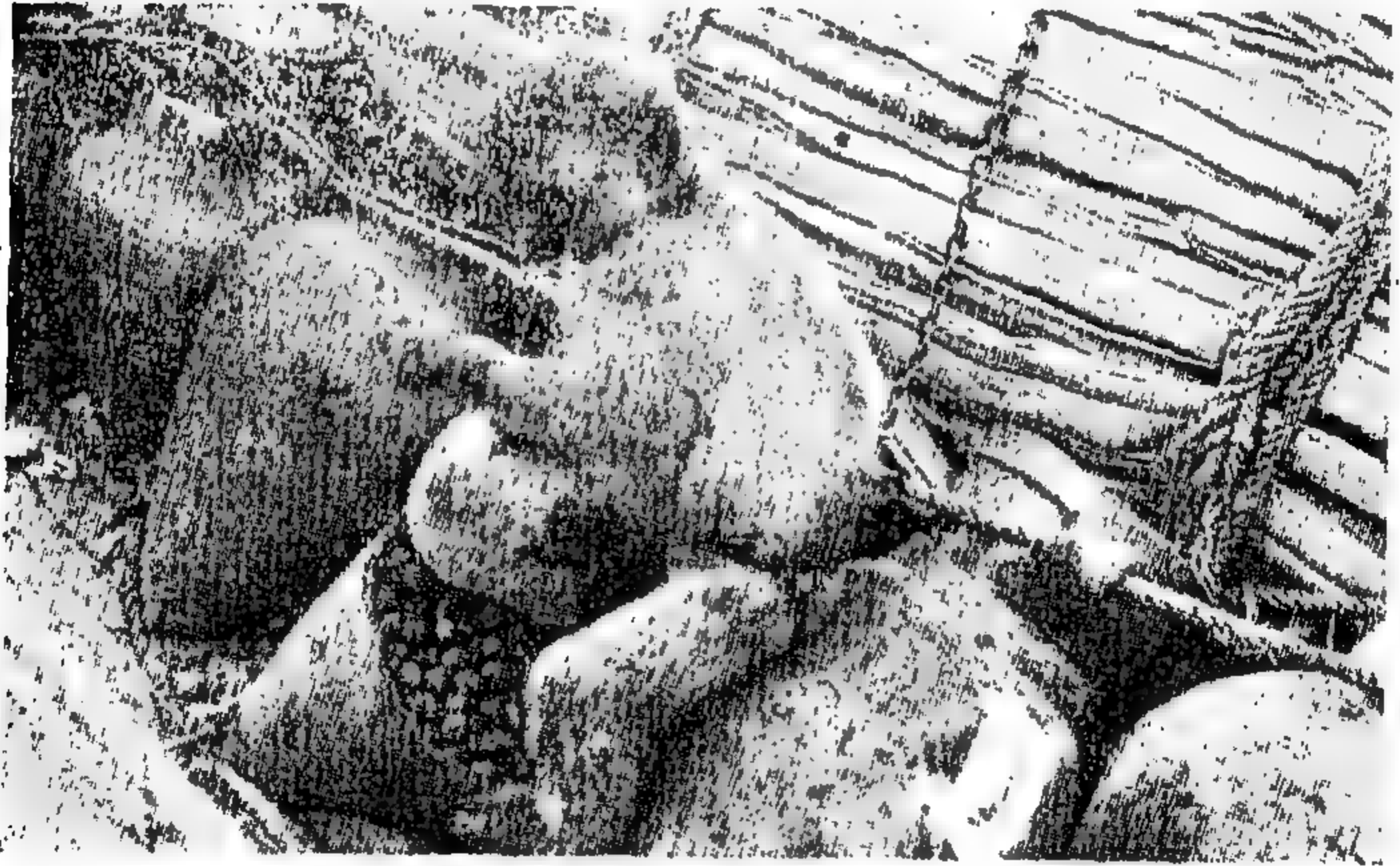
الواحد تتجه نحونا .. وعاد البحارة إلى داخل المقصورة بعد أن اطمأنوا ،  
وبعد قليل مرت أمامنا ثلاثة قوارب ، ومرت القارب الرابع بخفة وبذلك  
نجونا تمامًا من احتمال اصطدام هذه القوارب بنا ثم اختفت من أمامنا في  
الظلام ....



جورج سوريال يقطع بسكينه قطعة من اللحم المجفف

وكان اليوم الرابع دافئًا وهادئًا أيضًا . وظهرت الشمس من بين  
طيات السحاب ، لم نر فيها بوضوح سلسلة من الجبال على البعد . وبرغم  
افتقارنا إلى الأجهزة التي تحدد مكاننا بالضبط وبرغم فشلنا في الاتصال  
بمينا صافي فقد أكد لنا ( نورمان ) أننا لا بد سنعبّر جزر كناري ، وكنا

نجرى فى أخطر ممر مائى بين فورت فنتورا *Fuerte Ventura* وكيب  
چوبى . وأكد لنا كذلك سانتياجو الذى قضى شبابه فى جزر كنارى أن  
ميناء كيب چوبى *Cape Juby* كان بمثابة رعب قاتل (١) يعمل له البحارة  
كل حساب ، فالصخور المختلفة فى الرمال كثيراً ما تبرز على هيئة لسان فى  
تيار المحيط الخطر عند ما يتجه الساحل الأفريقى نحو الجنوب . . .



تخطم إناء به بندق فسطا عليه القرد صافى

( ١ ) يقع ميناء كيب چوبى أو « يوبى » على الساحل المغربى وكان

الأسبان يسمونه « كابويوبى » . ( الناشر )

كنا نجلس على كومة الشراع نأكل . عند ما سمعنا صرخة مدوية من عبد الله ، بعد أن انتهى من طعامه واستعد للصلاة ، ثم ترامت إلى آذاننا هذه الكلمات : « خيول . . . خيول . . . لا بل سيد قشطه » . فنظرنا في الحال إلى المكان الذى كان يشير إليه وبعد لحظة ظهر حوتان كبيران راحا ينظران بدورهما إلينا بعيون ناعسة ، ثم أطلقا نافورتين من الهواء والماء ، ولم ير عبد الله مثل هذه الوحوش فى بحيرة تشاد ، ورفع أحد الحوتين ذيله وكأنه يودعنا . . .

وفى الليل هبت الريح بعنف من جديد فتبادلنا الحراسة المزدوجة خوفاً من شواطئ « كيب چوبى » الرملية كما راقبنا الحبال بدقة تامة فلم يقطع منها حبل واحد ولم تغلت لفة من لفائف البردى من مكانها ، ولكن المقصورة بأكملها كانت منحرفة نحو الجانب الأيمن للقارب ، ولم يستطع واحد منا أن ينام على جانبه بدون أن يتدحرج ، أما البحارة الآخرون فكانوا ينامون كل أربعة فى صف واحد . . .

وظلت العاصفة تزجر طوال الليل ، والأمواج ترتفع إلى خمسة عشر قدماً . وفى صباح اليوم السابع بدأ رع فى حالة تفكك أو انهيار ، كما أن الرطوبة المنبعثة من البحر جعلت أعواد البردى تنتفخ وتصل إلى نقطة الانفجار . وكان من سوء حظ القارب أنه عانى فى هذه الأيام السبعة ما لم يعاناه قارب آخر فى حياته البحرية . وكنا أكثر المخلوقات البشرية إعجاباً بهذا القارب الغريب الذى تحمل كل هذه المتاعب والمصاعب وتحدى العواصف والأعاصير ، وهو كومة من القش . . . وعندما أعلن

نورمان أننا نتجه نحو الصخور كان عاينا أن نختار بين أحد أمرين :  
أن ننشر الشراع في مواجهة الريح الشمالية أو نذهب مباشرة في  
اتجاه الأرض . وقررنا أن ننشر الشراع ونجحنا في دفعه ووضع مجداف  
الدفة في الماء . . . .

وطينا كسمكة طائفة فوق الأمواج بعيدين عن الأرض ، وبعد  
قليل سمعنا صوت طرقعة ، فقد انقسم المجداف القوي كأنه عود ثقاب . . .  
ولكننا برغم هذه المفاجأة استطعنا متكاتفين أن نحول القارب إلى مساره  
الصحيح بقية اليوم ، بدون أن يتحطم عود واحد من أعواد البردي أو تؤثر  
فيه العاصفة الهوجاء . . . .

وفي اليوم السابع كانت السحب قد انتشرت في السماء وفوق القارب  
رع . ومن بعيد لاحت السماء زرقاء اللون ، فعرفنا أن جزر كنارى وراء  
هذه السحب ، واتخذ ( رع ) طريقه نحو السماء الزرقاء . . . .  
اختفى الساحل الأفريقي تمامًا من أمامنا ، لذلك قررنا أن نحتفل بالمناسبة ،  
فذبح عبد الله ثلاث دجاجات . وكان اليوم الحادى والثلاثين من شهر مايو ،  
وقد قضى القارب في الماء أربعة عشر يومًا بدون أن يحدث له أى خلل  
أو عطب ، بل على العكس كان قويًا لم يتحطم منه عود بردي واحد .  
وكنا قد أبحرنا لمدة أسبوع بعد أن تركنا ( صافى ) إلى ( كيب چوبى )  
أى ، أبعد من المسافة بين نهر النيل وبابيلوس Byblos في المملكة الفينيقية .  
أو المسافة بين مصر وتركيا . وبذلك نكون قد أثبتنا أن المصريين كان في  
استطاعتهم أن يمحزوا عباب البحار والمحيطات بقواربهم المصنوعة من

نبات البردى في أى وقت كان على سواحل آسيا الصغرى بدون مساعدة من  
قوارب مصنوعة من الخشب . . .

وفجأة سمعت من يقول : « بيوت بيضاء ! » فأسرعت لألقى نظرة ،  
فقد اقتربنا فعلا من كيب چوبى . ففي الوقت الذى كنا نحتفل فيه  
بنجاحنا كانت الأخطار كامنة تحتنا فقد مكثنا أسبوعاً كاملاً نصارع  
فيه من أجل الابتعاد عن الساحل وما نحن نقرب منه . . .



## الباب التاسع

### البحر يقوم بالمهمة

أصبحت جزر كنارى خلفنا . وفى ثمانية أيام كنا قد قطعنا نفس المسافة عبر بحر الشمال من النرويج إلى إنجلترا . والسفينة التى لا تفقد معركتها مع البحر فى مثل هذه الرحلة الطويلة يطلق عليها عادة « سفينة البحر التى لا تبارى » . وبرغم الدفة المحطمة ، والمجاديف المشقوقة ، والساحة المبتورة ، وبرغم وجود بحارة غير متميزين أى غير معتادين ركوب البحر ، وبرغم قسوة العواصف والأنواء والأمواج العالية التى ترتفع كالطود الشامخ ، برغم ذلك كله فقد كان القارب رع خفيفاً نشيطاً مبتهجاً . . .

فقد أبحرنا به فى أعلى البحار التى لا تشبه من قريب أو بعيد مياه النيل الهادئة . وعبرنا جزر كنارى بدون أن تلتقط عيوننا أى أثر للأرض . والآن وقد تقوست السماء الزرقاء ، رأينا بوضوح بساط السحاب المحدود فوق الساحل الذهبى الأفريقى . الذى أشار نحو المحيط الذى سوف نعبه . أما مكان جزر كنارى فقد حددته قطاع البراكين غير المنظورة التى ترتفع إلى اثنى عشر ألف قدم وقد دأبت على أن ترسل سيلا من الرطوبة إلى الأجواء العليا الباردة ، ثم تتركز فى سحب متعاقبة تحملها الرياح فوق البحر كأنها أشرطة من الدخان تنبعث من سفينة ضخمة .

أما عبد الله الذى لم يعرف جزراً غير تلك التى تطفو على سطح بحيرة تشاد ، فقد ارتعب عند ما عرف أن هناك جزراً فى هذه البحار الهائجة تعيش عليها مخلوقات بشرية . وأراد أن يعرف هل هم فى مثل لون بشرته أم بيض مثلنا . . . أما سانتياجو الذى عاش ردهاً من حياته فى جزر كنارى وهو أيضاً من علماء الأنثروبولوجيا - علم الإنسان - فقد تحدث إلينا طويلا عن الجوانشيين Guanches الغامضين الذين يعيشون على هذه الجزر عند ما اكتشفها الأوربيون قبل أن تكتشف أمريكا . وكان بعض هذه القبائل الأصلية فى جزر كنارى سمرالبشرة قصارالقامة ، فى حين كان بعضهم الآخر فاتحى اللون طويل القامة ، عيونهم زرقاء كزرق البحر ، وشعورهم ذهبية ، ولهم أنوف قُنُوء أو معقوفة . وفى إحدى اللوحات التى رسمت بالطباشير أو الباستيل فى عام ١٥٩٠ ظهرت مجموعة من الجوانشيين بلحاهم الذهبية ، وشعورهم الطويلة المنسدلة فى موجات ناعمة على ظهورهم .

ويذكر سانتياجو أحد هؤلاء الجوانشيين وكان طالباً معه فى جامعة أكسفورد وكأنه مومياء جابت من جزر كنارى . . . وكان السكان الأصليون لجزر كنارى يجيدون التحنيط ، وتربنة الجماجم ، تماماً كالمصريين القدماء . وحقيقة الأمر أن الجوانشى كان يشبه الفايكنج الإسكندنافى ، أكثر من أى جنس آخر له صلة بالقارة الأفريقية . وقد أثار هذا الشبه جدلاً كبيراً عن الاستعمار الإسكندنافى لما قبل التاريخ . وقاد هذا النقاش الصائب إلى احتمال أن تكون جزيرة كنارى هى قارة

أطلنطيس Atlantis المفقودة . ولكن التحنيط وتربنة الجماجم لم تكن معروفة في أوروبا القديمة ، لذلك ربط بعض المفكرين والعلماء الحضارات القديمة لشمال أفريقيا بحضارة الجوانشيين . . . أما أهل مراکش الذين يعرفون باسم البربر فقد أجبرهم العرب على الرحيل جنوباً حتى جبال أطلس . وكان ذلك منذ ألف عام مضى ، وكانوا جنساً مختلطاً ، تماماً كالجوانشيين ، بعضهم قصير القامة ، أسمر اللون ، وبعضهم طويل القامة ، أبيض اللون ، لحم عيون زرقاء ، صاخبة كزرقة البحر أيضاً . وهناك سلالات من هؤلاء البربر في القرى المراكشية النائية أو المنعزلة حتى يومنا هذا . . .

تطلعنا إلى بساط السحب ، وإلى فوهة البركان الظاهر في جزر كنارى ، وفي الجوالصافي ، كانت قمة البركان ترى بوضوح من الساحل المراكشى . ولم تكن في حاجة للذهاب إلى إسكندناوه أو الذهاب إلى بلاد الجوانشيين ، ولا بد أنهم اختلطوا مع سكان أقرب قارة لهم ونجحوا في عبور نفس الممر البحري الذي نعبه نحن الآن على قارب من البوص أو الورق . . .

وكان غزو هؤلاء الجوانشيين ذا أثر ؛ فمن يكونون ؟ ولكن كيف جاءوا إلى هذه الجزر ؟ وعند ما عثر عليهم الأوربيون بأجيال ، قبل وصول كولبس إلى أمريكا ، لم يملكوا قوارب من أى نوع كانت ولا أطواف ولا مراكب . وبرغم ذلك فإن أشجاراً ضخمة كانت تنمو في جزر كنارى ، وعلى ذلك لم ينقصهم الخشب . وكان الجوانشيون البيض والسمر

فلاحين ورعاة يربون الماشية ، وقد تمكنوا من إحضار الحرفان معهم من أفريقيا إلى هذه الجزر النائية . ولكي يتركوا الساحل الأفريقى مع نسائهم وخرفانهم فلا بد أنهم كانوا بحارة أو صيادين وليسوا مجرد رعاة أغنام . . . .  
إذن فلماذا نسى هؤلاء قوارب أجدادهم ؟ هل سبب ذلك أن أجدادهم لم يعرفوا أى نوع من القوارب غير قوارب البردى التى أطلقوا عليها اسم « ماديا » وهى قوارب البردى التى عاشت على الساحل الشمالى لمراكش حتى يومنا هذا ؟ . . . .

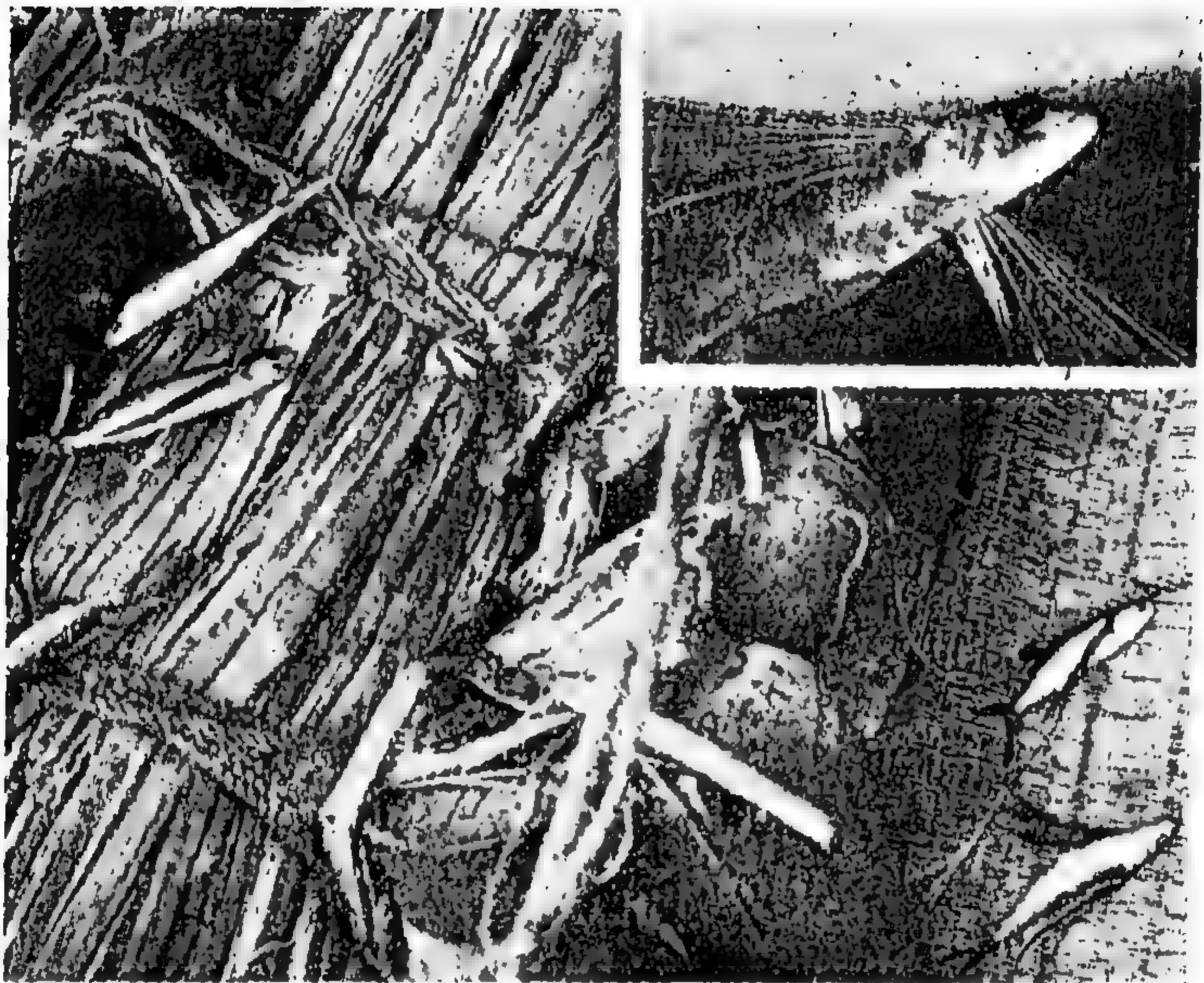
وفجأة بدأ القارب رع يزجر ويغضب فنسينا الجوانشين ، وأسرعنا نحو الشراع الذى بدأ ينطوى . . . . وكانت الريح لا تزال كما هى ، وبدأت مجموعة من الأمواج تنهمر على القارب وتغمره ، ولكن القارب الورقى الذهبى لم يعبأ بهذا السيل الجارف من المياه ، وراح يرفع نفسه فى عظمة ونخيلاء ويسخر بالبحر من تحتنا . فالأمواج الشائخة تتحطم وتسرب أو تفر إلى البحر من بين فتحات أعواد البردى الأفريقية القوية . . .  
وأصيب عبد الله بصداع وفقد شهيته فأرسله يورى إلى فراشه ، وجلسنا نأكل الفاكهة عند ما صرخ ، صوت « احذروا ! ! » وأسرعنا ننظر إلى صوت التحذير أو النذير ، فإذا بموجة عاتية تندفع نحونا فى سرعة وإصرار ولكنها تحطمت تحت حزم البردى وتبعثها أمواج أخرى لاقت نفس المصير . وعند ما يتصرف البحر على هذا النحو بدون سبب نعرف على الأثر أننا دخلنا فى اتجاه تيار المحيط القوى القادم من البرتغال والذى يندفع بين جزر كنارى . وعلى ذلك فقد كنا نسير فى طريقنا الصحيح يرفعنا تيار

كنارى نفسه وهو يتجه نحو خليج المكسيك . . .

كان عبد الله غارقاً فى النوم ، فلم ير الحيتان الخمسة التى ظهرت أمامنا ، وسارت بحذاء القارب ر ع ، ثم اختفت بسرعة قبل أن يصورها كارلو - ثم طقطق المجذاف الوحيد الباقي لنا وكان علينا أن نفعل شيئاً .. فهل نتجه نحو كيب فردى Cape Verde ونحصل على خشب قوى ؟ وكان الرد لا . . . لأن على القارب صاريًا من الخشب المصرى القوى - فاستخدمناه برغم ثقله كمجذاف . وبرغم أن القمر كان يغمر البحر الهاائج ، إلا أن نفوسنا استكانت واطمأنت ، فقوة ر ع غير محدودة لا تستطيع الأمواج برغم علوها وقوتها أن تقهره . وكأن البحر يكره الخشب لذلك يحطمه ، أما البردى فكان البحر يكن له كل ود وتقدير . وبعد مجهود مضن شاق استطعنا أن نرفع الصارى الخشبي المصرى إلى أعلى ر ع ونربطه بحبال سميكة لا تقوى الأمواج على اقتلاعها . وذهبنا إلى النوم بعد أن قام بعضنا بالحراسة خوفاً من الاصطدام بالسفن التى تمخر عباب المحيط فى الليل . . . ومكثنا ثلاثة أيام ونحن نبحر بدون مشاكل أصلحنا خلالها بعض ما ألم بالمجذاف الخشبي من تصدعات .

كانت الريح تهب من الشمال ، محملة بالبرودة ، ورع يندفع بقوة نحو الغرب ، بسرعة ستين ميلاً بحرياً فى كل أربع وعشرين ساعة ، أو بسرعة عقدتين ونصف عقدة فى الساعة . وبعد مرور أحد عشر يوماً قطعنا ٥٥٧ ميلاً بحرياً أى أكثر من ألف كيلو متر .

ولدة يومين كانت البواخر تظهر بكثرة من حولنا . وذات مرة رأينا

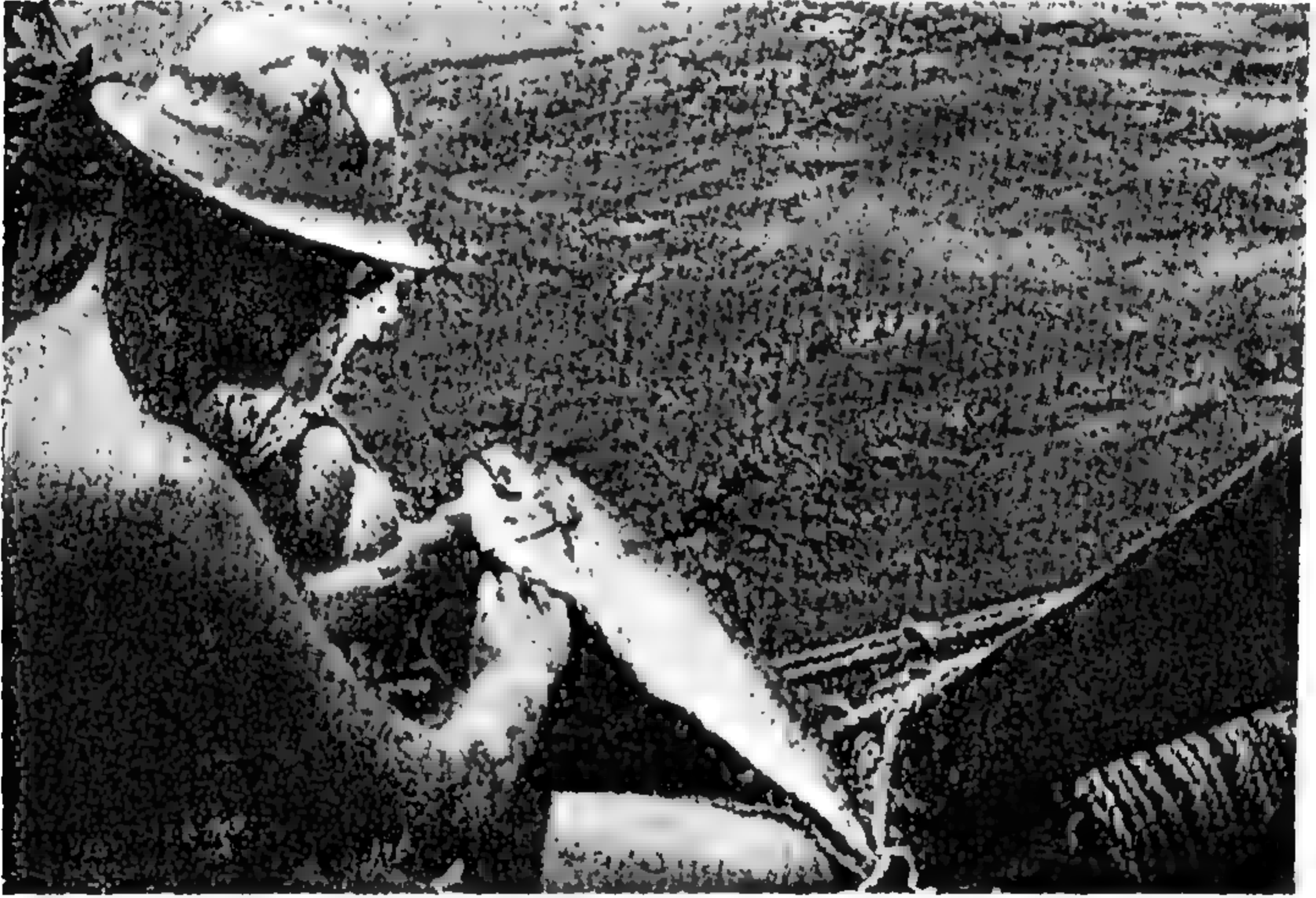


### الأسماك الطائرة . وهي تستقط على القارب بكميات كبيرة

ثلاث سفن من عابرات المحيط الضخمة . إذن فلا بد أننا في طريق الدائرة العظمى حول أفريقيا . . . وكان علينا أن نضع مصباح البرافين في أعلى الصاري ، لكي لا يصطدم بنا شيء في الليل . ولكن سرعان ما أصبح البحر خالياً من الرحالة ، ولم يظهر أمامنا غير مدارس من الدرافيل ترقص من حولنا . واقترب بعضها منا بدرجة أننا كنا نربت على



رءوسها . ومرت أمامنا أسماك القمر الكبيرة ، ورأينا لأول مرة بعض الأسماك الطائرة وهي تطير كالرماح . وكانت السماء خالية من المخلوقات الحية . وبعد مرور وقت ظهرت أسراب من طيور النوء .



ثور هايردال يمسك بسمكة من نوع « دورادو »

ومن عادة هذه الطيور أنها تنام على الماء . . . .  
أعجب ما كان في أمر هذه الرحلة أن السماء في الليل كانت مرصعة بالنجوم ، والكواكب ، والسدم ، والمجرات . والبحر من تحتنا مرصع بالحيوانات البحرية الدقيقة المنيرة — البلانكتون — التي تلمع كضوء النيون

من تحت البساط الأسود الناعم الذى نسبح فوقه ، وكأننا نسبح تحت سماء الليل ، فوق مرآة ، أو كأن البحر مصنوع من الكريستال الصافى لا قرار له ولا قاع . . .

ولم يكن فى هذا الوجود غير القارب الذهبى وهو يتهادى على صفحة المحيط . يسخر بالأمواج من حوله وشراعه المربع الضخم يحجب نجوم اللامعة . هذا القارب المصرى العظيم استطاع فى هذه الليلة أن يعود بالزمن عدة ألوف من السنين . إن مثل هذا القارب لم يعد يرى فى البحار المفتوحة اليوم . . . فقارب من البوص والبامبو والخشب والحبال يقوم بكل شئ ويندفع بإصرار نحو الطريق إلى أمريكا . . .

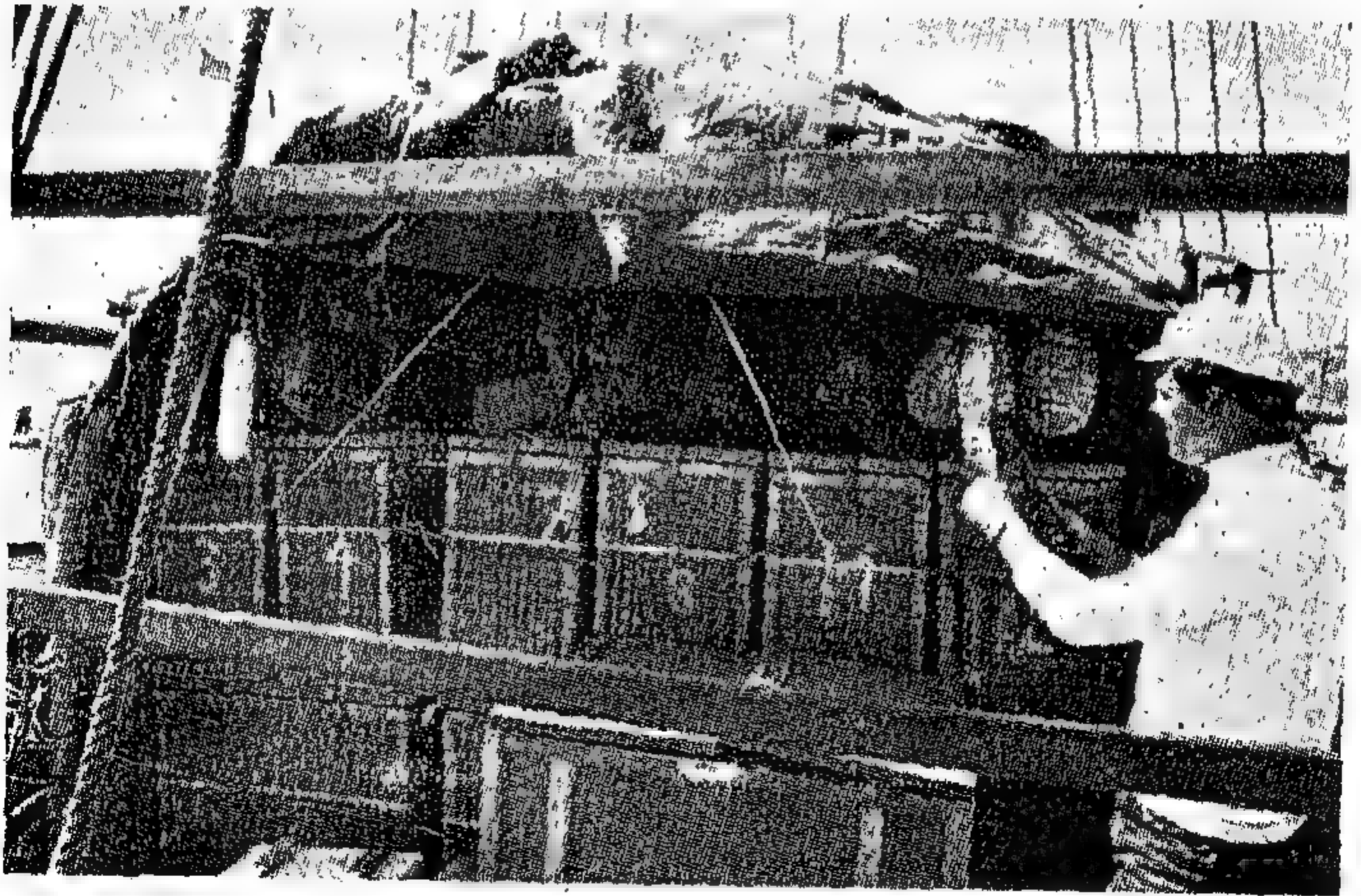
لم نكن نعيش فى عصر الذرة والصاروخ ، بل كنا نعيش فى وقت كانت فيه الكرة الأرضية كبيرة ومسطحة ومليئة بالبحار والقارات المجهولة . . .

وفى الرابع من شهر يونية بدأ البحر الصاخب يهدأ من حولنا . وفى صباح اليوم التالى استيقظنا لنشهد عالمًا جديدًا . . . وزارنا خمسة حيتان كبيرة وربما كانت نفس الحيتان التى زارتنا من قبل . وكانت رائعة رشيقة . . .

كان النهار جميلاً ودافئاً فتشجع جورج وخلع ملبسه وغاص فى البحر واختفى تحت رع ، ثم ظهر فغاص غيره بينما جلس عبد الله فى المقصورة هادئاً يفكر . . .

إذا لم تهب الريح فلن نصل إلى أمريكا مطلقاً وبدلاً من أن نقطع

مائة كليومتر في اليوم انخفض ذلك إلى خمسين كليو متراً فقط . . . .  
 ظل البحر هادئاً حتى اليوم التاسع من شهر يونيه ، وكان ركاب  
 ر ع ينامون معظم النهار . وأبدى نورمان بعض مخاوفه ، فالتيار يحرف  
 القارب نحو الجنوب الغربي . وإذا لم تهب الرياح ، فسوف يقع القارب  
 فريسة لتيارات الساحل في موريتانيا والسنغال . وفي اليوم السادس من  
 شهر يونيه اتجهت نحونا عابرة ضخمة من عابرات المحيط ، ثم مرت  
 بجوارنا في طريقها إلى أوربا . وبعد ثلاثة أيام استيقظنا لنرى البحر ،  
 وقد امتلأ بقطع من الأسفلت والأخشاب ، واختفى لون المحيط الأطلسي



الأزرق الرائق الجميل . وعامت حولنا الزجاجات الفارغة وكأننا في ميناء .  
ولم أر شيئاً كهذا خلال المائة يوم التي قضيتها وأنا على ظهر الطوف  
« كون تيكى » — وأصبح واضحاً لنا أن الإنسان لوث هذا الجسم المائى  
العظيم . . .

وفى العاشر من يونية اشتد هبوب الريح وفى اليوم نفسه ذبح عبد الله  
آخر دجاجة ، ولم يبق غير البطة . وعند ما ألقينا بالقفص الذى كانت  
تعيش فيه مع الدجاج الصيَّاح لم يجرؤ واحد منا أن يذبحها ، فتركناها ،  
وأسميناها سندباد ، وربطنا أحد ساقىها بحبل فى حين ظل القرد صافى  
محفوظاً بمكانه فى منطقة الكابينة . . .

وفى أثناء الليل اشتد هياج البحر ، وكان من العسير أن يقف الإنسان  
على جسر القيادة ولا يرى شيئاً غير شراع منشور من فوقه مصباح زيتى .  
وبلغ بنا التعب أقصاه فى الليل لا سيما فى أوقات الحراسة . وفى النهار كان  
القارب رع قد تفكك أكثر من ذى قبل وأصبح الصارى غير ثابت فى  
مكانه . وفى القوارب المصرية القديمة كان الصاريان مر بوطين فى فراغ ضحل  
بكتلة . من الخشب موضوعة فوق قاعدة البردى وقد ثبت بقطعة من الخشب  
بجزئه الأفقى ، وربطت بإحكام إلى القاعدة ، كما ربطت النهاية الأفقية  
بالجزء الأسفل من الصارى . أما فى القارب رع فقد تفككت هذه  
الحبال ، كما هدد الصارى بالقفز من مكانه ، فاضطرونا إلى ملء الفراغ  
فى القاعدة بقطع من الأخشاب ، ونجحنا آخر الأمر فى تثبيته .

كان البحر مليئاً بالحياة فى ذلك اليوم ، فالأسماك الطائفة تهطل

كما نطر من حولنا ، وأسماء القمر تظهر من قريب أو بعيد ، كبيرة دائرية الشكل ، ساكنة الحركة . وأعلن نورمان أننا انحرفنا نحو الجنوب ، وفي الأربع والعشرين ساعة الأخيرة غاص الجانب الأيمن لرع في الماء وأصبح نهباً للأمواج . وفي صباح اليوم التالي كانت الريح الشمالية قد اشتدت حدتها . وحدث أن رأى يورى لأول مرة فقاعات زرقاء على وجه المياه فاحتواها بين يديه ولم يسبق له أن رأى « رجل الحرب البرتغالي » Portuguese Men-O'-War وهو الاسم العلمى لهذه الفقاعات الزرقاء ، وبعد لحظات كانت هذه الفقاعات الزرقاء تعصر يديه وذراعيه ، وهى ليست من الحيوانات الفردية بل مستعمرة كاملة من المخلوقات الدقيقة ، تعيش فى تكافل معقد لكل منها صفات خاصة وعمل خاص . والغريب أن فى المستعمرة الواحدة مجموعات من الصيادين والجنود الذين يدافعون عن أفرادها فيطلقون حامضاً حارقاً فى أجسام ضحايا وأعداء المستعمرة ، وكثيراً ما تقتل هذه الفقاعات الزرقاء المخلوقات البشرية .

انتشرت الحروق الشديدة فى يدى يورى وسرى الحامض إلى جهازه العصبى وشلت عضلاته وبدأت تؤثر على قلبه . وبذل طبيب القارب رع مجهودات كبيرة لمدة أربع ساعات كاملة وهو يعالج نفسه . . .

وفى يوم ١٣ يونية كانت الرعود تزار كالأسود الغاضبة وأرسل البحر أطناناً من الأمواج فوقنا ، ورأينا منطقة الدقة وهى تغوص تدريجياً تحت ضغط الجبال المائية . ولم يكن هناك ما نعمله بل كان علينا أن ننتظر حتى تنحسر هذه الأطنان من مجارى المياه على جانبي رع البطل الذى



عانى ما لم يعانه قارب آخر فى الوجود . وكان عبد الله برغم ذلك يؤكد  
أننا لن نغرق ما دامت الحبال قادرة على الصمود . . .

ومن ١٤ يونية إلى ١٧ يونية ظل البحر على حاله وبدأ جورج يشكو  
من آلام فى ظهره ، كما مرض عبد الله ولكنه عالَج نفسه سريعاً . . .  
وشرع الجسر ينهار وكان علينا أن نقويه بالحبال . . .

ومرة أخرى بدأ الصارى يقفز من حذائه الخشبي ورج يرقص بين  
الأمواج ويصدر صوتاً خشناً لم يسبق أن سمعناه ، والتوت الجدران ،  
والقاعدة ، والسقف ، واضطر جورج ويورى ونورمان أن يسبحوا تحت  
القارب ثم صعدوا إلى السطح ليخبرونا أن البردى من تحت الماء فى حالة  
جيدة وكان علينا أن نفعل شيئاً . . . ثم انفصل مجداف الدفة وبعد  
معركة عنيفة استطعنا أن نعيده إلى مكانه . لو كان ر ع مصنوعاً من  
الحشب لتحطم وانشق نصفين . . .

كان لا بد أن نضع حذاءً لفيضان الماء فجمعنا كل البردى الذى  
ادخرناه للطوارئ وشرع عبد الله يقوى به لفات البردى . ولكن فوران  
المياه كان عظيماً . وطار عبد الله أكثر من مرة إلى عرض البحر ، ولكنه  
عاد وهو يتسم وحبل النجاة حول وسطه . . .

وحدث ما كنت أخشاه ، فكلما ارتفعنا بالسد اندفعت المياه ،  
ووجدت لها مكاناً على القارب حتى ذيله لأن قاعه كان قد امتص كميات  
كبيرة من الماء ، وغاص بدوره . فحاولنا إزالة الحائط الذى بناه عبد الله ،  
لكن المياه كانت قد ملأت صندوق أطواق النجاة فزاد ثقل القارب ،



واضطربنا إلى قطع الحبال لنفرج عن بعض قوارب النجاة فوق السطح حتى يرتفع القارب . . .

وفي يوم ١٧ يونية بلغت العاصفة ذروتها ، واتجهت الريح نحو الغرب وبدأ البحر الصاخب يهدأ بعد ثورته العارمة . ويبدو أننا عدنا مرة أخرى إلى التيار الرئيسي وأبلغنا نورمان أننا قطعنا ثمانين ميلاً بحرياً أو ١٤٨ كيلومتراً خلال الأربع والعشرين ساعة السابقة . وخلال العاصفة الهوجاء قطعنا ٥٠٠ ميل بحري من الساحل الغربي الأفريقي متجهين مباشرة إلى جزر كيب فردى غرب داكار ، وكانت الرياح الشمالية والتيار يحملاننا في خط مستقيم نحو مجموعة الجزر التي قد تظهر في أى وقت . وقد أمدتنا هذه المخاطر بشعور عدم الارتياح والخوف من الاصطدام بالصخور .

كان يوم ١٨ يونية عاصفًا ، فجزر كيب فردى لا بد أن تكون أمامنا ، لكن الضباب الكثيف قد حجبها عنا . فمئذ أسبوعين عبرنا جزر كنارى ونحن على مقربة منها بدون أن نراها . أما اليوم فالمشكلة أكثر تعقيداً . فقد مكثنا فوق حزم البردى أربعة وعشرين يوماً ومع ذلك والبردى سابح في ماء البحر لأكثر من شهر . وسبح روع أكثر من ألفي كليو متر حول الساحل الشمالى الغربى لأفريقيا . أما الآن فإن الرحلة الحقيقية عبر المحيط الأطلنطى من قارة إلى قارة سوف تبدأ . فإذا كان المصريون القدماء قد أبحروا فعلاً من مصب النهر كما أبحرنا من ميناء صافى فلا بد أنهم بلغوا نهر الدون في روسيا أو فيما وراء جبل طارق . والبحر الأبيض المتوسط رحلات روع

ليس كبيراً بالدرجة التي يجهد فيها قارباً من البردى .

وفكرنا في التخلص من قارب النجاة المصنوع من الكاوتشوك ودارت مناقشة حادة بيننا واستقر رأينا على أن نتركه لعدة احتمالات: منها الهبوط إليه في حالة الطوارئ القصوى أو الاصطدام بسفينة أو بصخرة من الصخور ، ثم احتمال اشتعال النار في روع ، واحتمال آخر ربما يغرق القارب من تحتنا فبعد شهر واحد لا بد أن يكون قد امتص كميات كبيرة من الماء أو ربما يعطب وأخيراً قد يحدث في المحيط طوفان وعلى الأخص



أعضاء الرحلة في أوقات راحتهم يشربون في نخب نجاحها

ونحن نقرب من جزر الهند الغربية ، وبرغم أننا عاصرنا أكثر من عاصفة هوجاء ، ولكن إذا حدث طوفان كانت الكارثة ، ولن نستطيع الهبوط إلى قارب النجاة المصنوع من الكاوتشوك . . . .

ولكننا أعدنا التفكير ووازننا الأمر جيداً ثم أنزلنا القارب على سطح رع وقطعناه إلى شرائط ضيقة شددنا بها حزم البردى الغارقة في الماء . وحدثت المعجزة وبدأت الدفة ترتفع بقدر ، استطعنا عن طريقه التحكم في القارب وبدأت الأمواج تنحسر ولا تملأه من الداخل .

وفي اليوم التاسع عشر من يونية كان سطح رع قد جف وأصبح كبساط ناعم . . . .

أشارسانتياجو إلى ضوء يشع من بعيد يتجه نحونا وكان الضوء لقارب يصدر إشارات سريعة لم نستطع قراءتها ويبدو أنها كانت تسأل عن شيء . . . فأرسلنا إلى القارب إشارات سريعة : « نعم . . . رع نعم رع » واقرب القارب منا وظننا أنه من قوارب السواحل في كيب فردى ، ولكنه كان يندفع بسرعة وأخيراً جاء الرد « رحلة سعيدة يا رع » . . . .

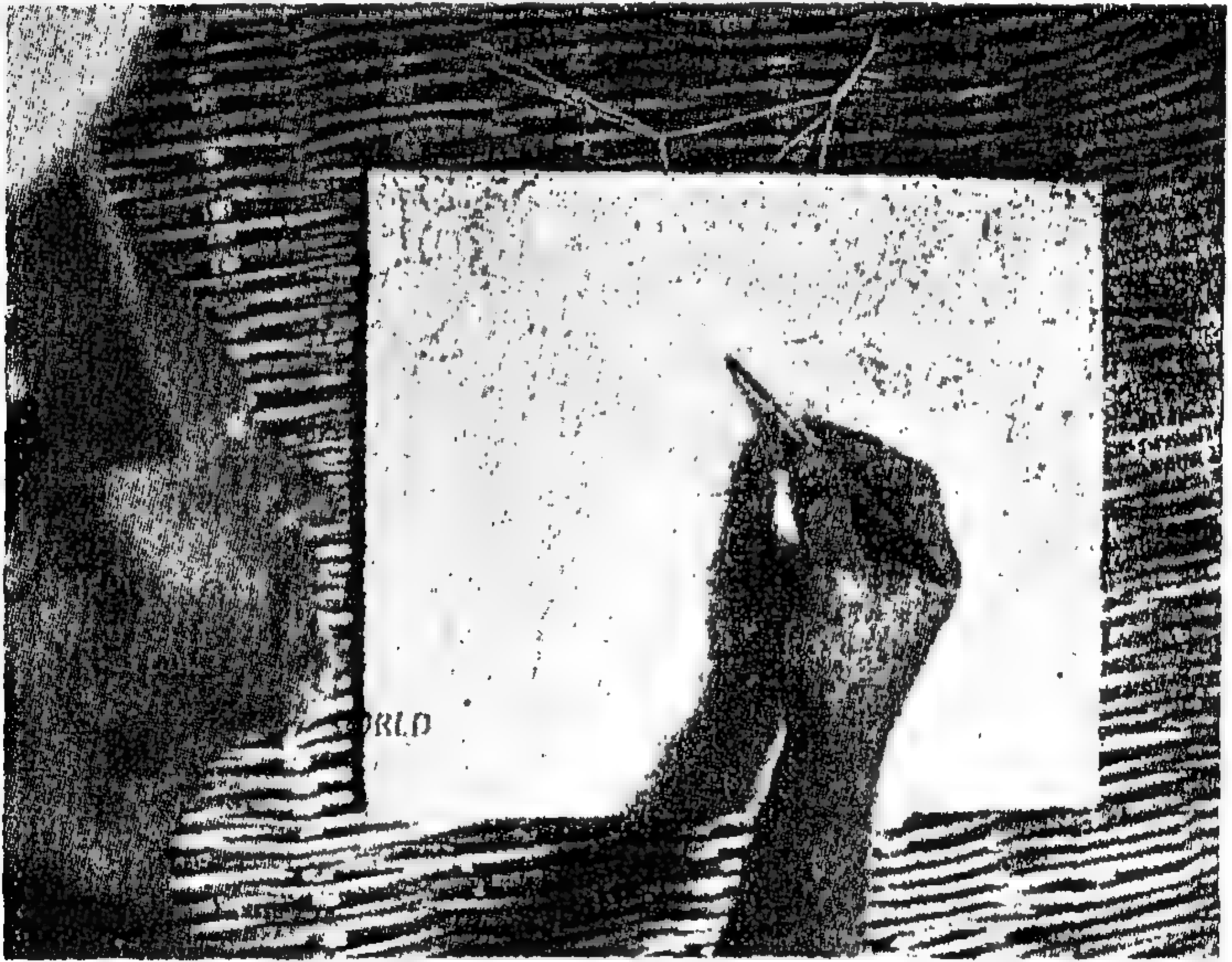
ثم استدارت السفينة واختفت في ظلام الليل . . . .

وبعد ساعتين سمعت طرقة شديدة فقد تحطم مجذاف الدفة ولم يصبح لدينا أى شيء ندير به القارب فصرخت لأوقف كل إنسان . . . وصرخت الحبال بذورها وهطلت الأمطار فألقينا بالمرساة ثم هدأ كل شيء . . . .

وشعرنا بأننا قد تركنا وحدنا في هذا المحيط الكبير وغلفنا الظلام ،

ولم نعد نرى أى ضوء أو سفينة. وجاء دور يورى فى الحراسة فربت على  
على كتفيه وقالت :

— حراسة سعيدة يا يورى . . . لن تصادفك مشا كل من أى نوع  
لانه ليس لديك شىء تدير به دفعة هذا القارب . . .



القلم يشير إلى المسافة التى قطعوها فى المحيط

## الباب العاشر

### في المياه الأمريكية

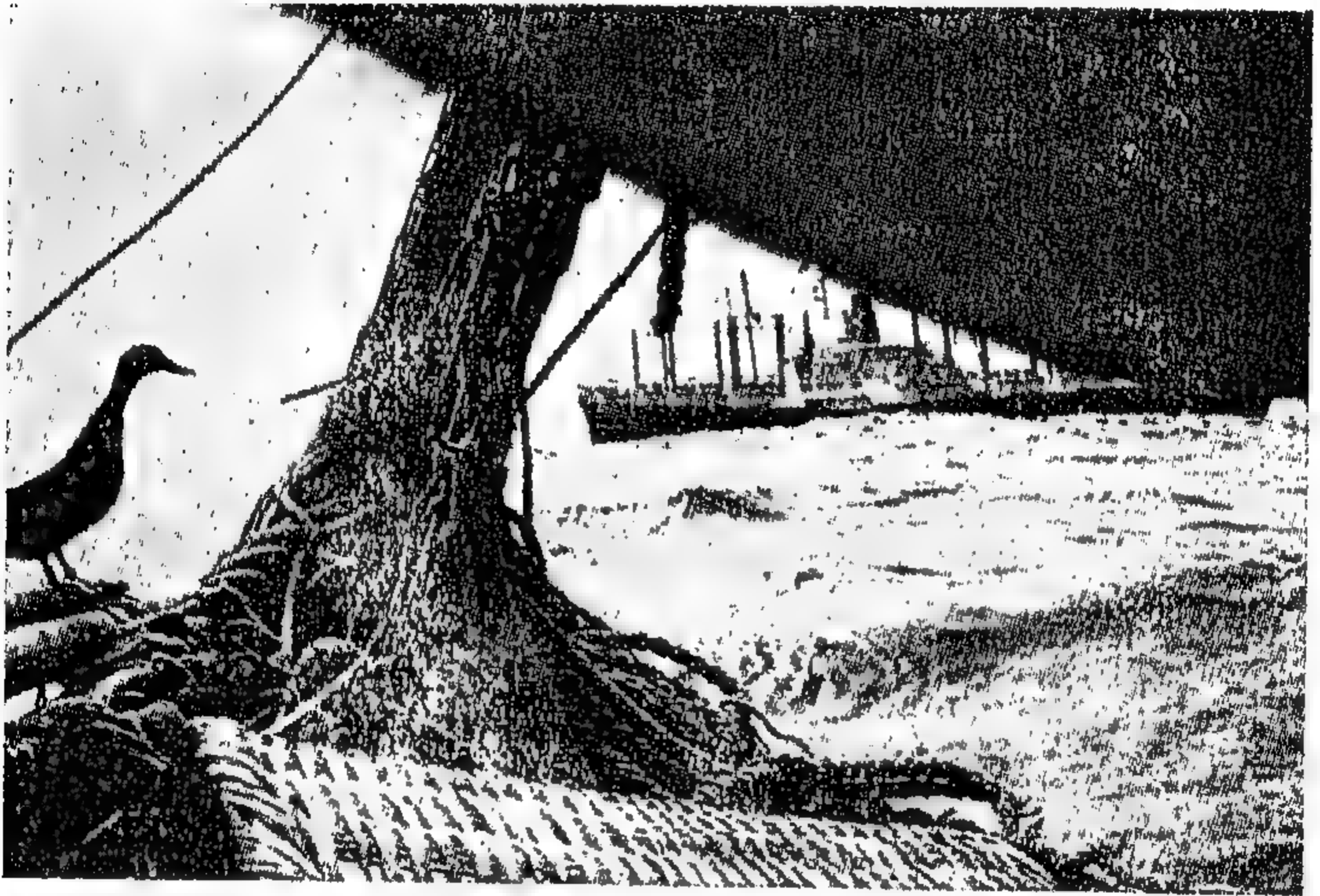
كنا نحتفل فوق القارب والبحر يتسم من حولنا . فالشمس الاستوائية تسطع فوق سطح مقدمة السفينة ، والأطلنطى من تحتنا تعلو وتهبط أمواجه في هدوء وروية . وفي داخل مقصورة البامبو كان المكان هادئاً مريحاً . . . وعلى الحائط ظهرت خريطة زرقاء للمحيط الأطلنطى وعليها دوائر صغيرة مرسومة بالقلم الرصاص . وكانت آخر دائرة تكشف عن عبورنا خط الطول ٤٠ غرباً وأننا أصبحنا في منتصف المحيط . . . ولعدة أيام كانت البرازيل قريبة منا لأننا كنا أكثر قرباً من أمريكا الجنوبية عن أفريقيا . وبما أننا كنا نبحر مباشرة نحو الغرب فسوف نعبّر عرض مكان في المحيط ، وتصبح جزر الهند الغربية أقرب مكان أمامنا . . . وظل قاربنا المصنوع من أعواد البردى يجرى على صفحة المحيط وشراعه منشور تدفعه الرياح في الاتجاه الصحيح من غير قيادة بسرعة لا تزيد على ستين ميلاً بحرياً أو مائة كيلو متر في اليوم الواحد . ولمدة ستة أيام كاملة بعد أن عبرنا جزر كيب فردى<sup>(١)</sup> على الساحل الغربى لأفريقيا ، وقضينا وقتاً عصيباً في السيطرة على القسم الخاص بدفة رع بمعاونة المجاديف المحطمة .

---

( ١ ) تبعد حوالى ٣٢٠ ميلاً عن الساحل الأفريقى .



ولكن الأمواج هنا في منتصف المحيط أصبحت أكثر تعاوناً ، وتصالحنا مع البحر وربطتنا به معاهدة صداقة . . .

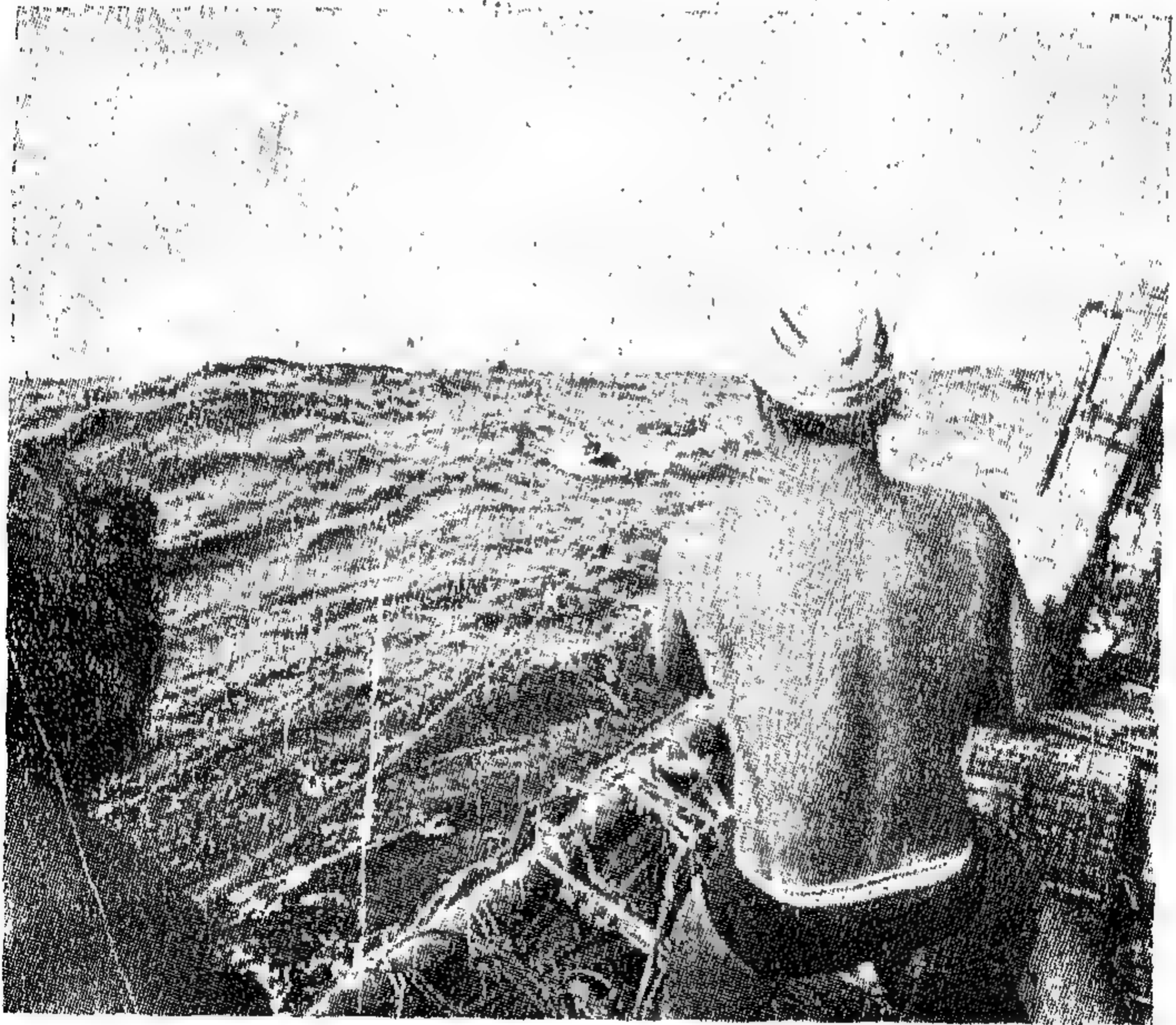


البطة سندباد تتخذ لنفسها مكاناً استراتيجياً فوق القارب

وقضينا يوماً من أمتع أيام حياتنا فوق ذلك القارب الذهبي رع ابن الشمس ، واستلقينا على ظهورنا نمنع النظر في النجوم اللامعة من فوقنا ونترك لأفكارنا العنان . . . وفي اجتماعنا هذا الودود دارت بيننا مناقشات عديدة فنحن نمثل مجموعة من الأمم المختلفة . . . نتحدثنا عن الشيوعية والرأسمالية وحكومة الفرد والدكتاتورية . وهل نفضل الطعام على الحرية ؟ وهل حركة الهيبر في الشرق والغرب قد أوجدتها الشباب أو الآباء ؟ وهل ستموت هذه الحركة ، أو تزداد عنفاً وضراوة مع تقدم الحضارة ؟ وهل



الحضارة التي بناها آباؤنا ليلاً ونهاراً ستقبلها الأجيال القادمة أو ترفضها؟  
فالمصريون والسومريون والآو أهل المايا والإنكا بنوا الأهرامات ، وحنطوا  
الجثث وظنوا أنهم على الطريق السوي. ودافعوا عن أفكارهم بالقلاع  
والقوس والرمح ، وظننا نحن أنهم كانوا مخطئين في أفكارهم عن هذه  
الحياة ، لذلك بنينا قذائف موجهة نووية وذهبنا إلى القمر . ونحلمي  
سياستنا الآن بالقنابل الذرية والقذائف المضادة للقذائف الموجهة. ويجلس  
آبناؤنا في مقاعد المحتجين على هذه التصرفات والأفكار ، فهم يعلقون تعاويذ



حمل من الفواكه لبحارة رع بعد أن أُلقت به عابرة المحيط

هندية حول رقابهم . ويطيأون شعورهم ويضربون على الجيتار وهم جالسون على الأرض ويتراجعون ويتقاعسون ويترحلون إلى ما وراء الشمس والقمر . . . .  
تحت النجوم وفوق لوح من البردى ينطلق بنا وهو يتهادى فوق  
أمواج المحيط ، كنا نتسامر . سبعة أفراد يمثلون شعوبًا مختلفة . التحموا  
في وحدة وتشابهوا في إنسانيتهم بصرف النظر عن أنوفهم المعقوفة أو  
المستقيمة أو المفلطحة . . . .

قررنا أن نذهب جميعًا لننام ويبقى واحد للحراسة . فقد مرت بنا أيام  
عصيبة ولاندرى ما الذى يخبئه لنا القدر . فعاصفة أخرى قد تكون مدمرة ،  
فؤخر السفينة لم يعد هناك ليحمينا وقد نشرنا خيشًا فوق حائط ظهر  
القارب القصير والجانب الأيمن للمقصورة بعد أن تدفقت أطنان الماء من  
مكان الدفة وغمرت رقابنا ، ورعوسنا مستندة إلى الحائط الخلفى . ورحت  
أسترجع متاعب الأيام القليلة الماضية قبل أن ندلف إلى البحر الهادئ .

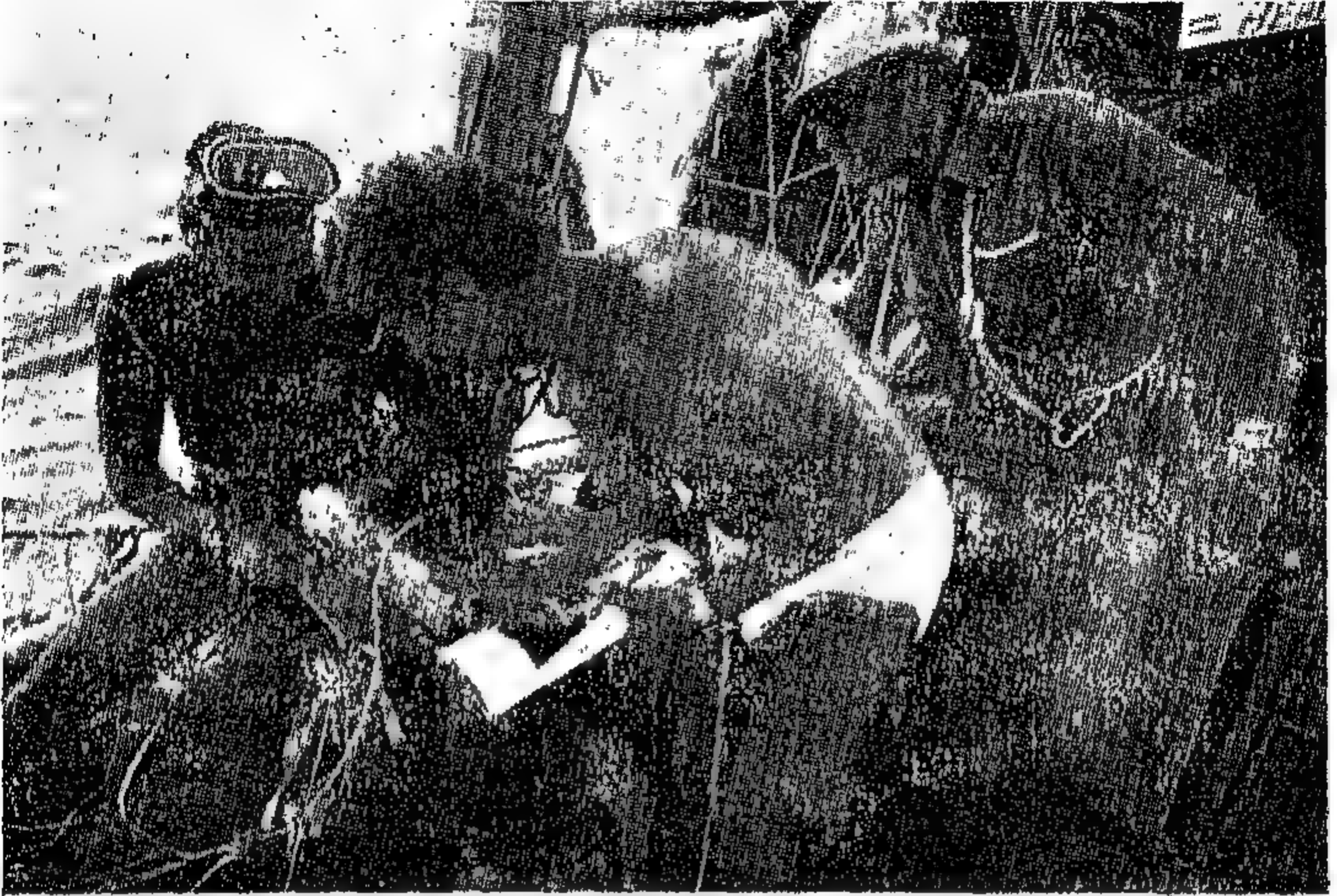
كانت مهمتنا بعد اليلة الأولى أن نحافظ على ملء الشراع بالهواء  
حتى لا يطوى ويضرب الصاري في عنف فيحطمه . وكانت الأمواج  
شديدة الصخب لم تمكننا من النوم الهادئ . . . وكانت حركة القارب العنيفة  
تقذف بنا كالدمى ، ونحن منبطحون على الأرض نحاول أن ننام ، ومياه  
البحر تجرى فوق ظهورنا ووجوهنا ، فسرعان ما ندلف إلى زكائب النوم  
وسرعان ما نخرج منها خوفًا من البلل . وفي هذا الاضطراب تصدع  
برطوم السقف المعترض للقارب ر ع وتداعت الأعمدة التى ترفع الجسر

وهوى الأخير ، فأسرعنا نبحث عن الحبال بعد أن غمرت المياه رؤوسنا ونجحنا في إعادة الجسر إلى مكانه بعد ربطه جيداً بالحبال . . .

مرت بنا أيام قاسية بعد عبور جزر كيب فردى وفي لوح القارب كان يوم ٢٠ يونية من الأيام العصيبة التي اجتزناها بمشقة . كان اليوم الحادى والعشرون من يونية أيضاً من أسوأ ما رأينا من أيام ؛ فمن غير مجاديف استطعنا أن نقطع في اليوم الواحد ٥٧ كليومتراً في اتجاه أمريكا . وكانت هذه أدنى سرعة باعناها . وفي الثانى والعشرين من يونية كانت عارضة الدفة تعوق سير القارب ، لذلك اضطر جورج أن يغوص تحتها وينشرها بالمنشار في حين ظل ثلاثة منا فوق السطح وتقدمت بعض الدرافيل السوداء المنقطة باللون الأبيض لتلعب بجوار القارب حتى كدنا أن نلمسها . وفي الخامس والعشرين من شهر يونية أيضاً كان الجو غامضاً غريباً ، فقد كان بين برد شديد وحرارة أشد . . . وبين وقت وآخر كانت تهب موجة من الحرارة مشبعة برائحة الرمل الجاف ، ولو لم أكن متأكداً من مكانى في المحيط لقلت إننا كنا على مقربة من ساحل الصحراء .

وفي هذه الليلة كان البحر متوعلك المزاج فاضطربنا أن ننقل كل شىء من مكانه إلى مقدمة السفينة ، ومع ذلك كان رع يقذف بنفسه بين ضجيج الأمواج غير عابئ بمصيره وكأنه بساط سحرى . . .

وانبأج نهارجديد . . . بحر هادئ وشمس مشرقة والرياح التجارية تهب من الشمال الشرقى . . . وعند ما تغير الجو ظهرت أول سمكة من أسماك



جورج بعد أن عاد بكيس الفاكهة ومعه سانتياجو ويورى ،

القرش متجهة نحونا واقتربت من ساقى جورج فسحبهما بسرعة فانهزفت  
سمكة القرش واختفت من أمامنا . . .

أما يوم ٢٨ يونية فكان من أبهج أيامنا ، فقد انصرف كل واحد منا إلى  
قضاء عمل خاص به . فجلس جورج يعلم عبد الله القراءة والكتابة باللغة  
العربية ، وجلس الآخرون يسجلون مذكراتهم ، أو يغسلون ملابسهم ،  
أو يصطادون السمك بزماحهم . ثم سمعنا صرخة ألم فأسرعنا نحو الصوت  
فإذا به نورمان . . . رأيناه فى مقدمة السفينة وقد شل جسده فظننا أن



سمكة القرش التهمته . . . . أسرعنا نحوه وجذبناه بعنف فوجدناه سائجا معافى ، ولكن نصفه السفلى كان متورداً ملتهباً ، فقد وقع المسكين في حبال سمكة من أسماك « رجال الحرب البرتغالية » وغاب نورمان عن وعينه عند ما سحبناه سحجياً إلى المقصورة حيث أعطيناه دواء مقوياً للقلب .

وفي الثلاثين من يونيو دخلنا منطقة في المحيط غارقة في كتل من الزيت تسير في نفس اتجاهنا ولكن الشراع كان قوياً والقارب يجري بسرعة . وفي الليل بزغ القمر الفضى وانتشرت أشعته فوق القارب الذهبى وشراعه الماون ، وكانت النجوم قد خبت في الأفق الشرقى وقد انصرم شهر مايو وتبعه شهر يونيو وما نحن ندلف إلى أول شهر يوليو ولا نزال فوق الماء ومعنا أطنان من المؤن اللازمة .

وفي أول شهر يوليو رأينا سفينة كبيرة ونحن نعب الطريق بين الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا واقتربنا منها حتى اختفت عن أنظارنا وفجأة صاح جورج : إنهم عائدون . . . .

وظهرت السفينة مرة أخرى وهى تتجه نحونا فوقفنا جميعاً ننتظر حتى إذا ما أصبحت قاب قوسين أو أدنى منا هتف نورمان : هل تريدون شيئاً ؟

فقال القبطان : بل هل أنتم تريدون شيئاً ؟ . . . .

فصرخنا جميعاً كل باخته : فواكه . . . فواكه ! !

ومع ذلك لم يعبأ رع بهتافنا أو يطلبنا واستمر في طريقه مندفعاً والسفينة الضخمة تحاول اللحاق به . . . . وابتسم القبطان وسرعان ما ألقى

فى البحر بحقيبة ضخمة ربطت بطوق نجاة. وفى الحل ارتدى جورج رداء البحر الخاص ليحميه من أسماك « رجال الحرب البرتغالية » وغاص فى اليم وعاد يجر الحقيبة الثمينة ، لقد جاء بصيد وفير : ٣٩ برتقالة و ٣٧ تفاحة و ٣ ليمونات و ٤ أقطاف من العنب ومجموعة من الجرائد الأمريكية ، فلوحننا للقبطان والركاب بشكرنا وامتناننا وجلسنا نقسم الغنيمة أو هدية عيد الميلاد . . . ولم ننس القرد صافى والبطة سندباد . . .

\* \* \*

قضينا أياماً ممتعة فوق رع . فحزم البامبو كانت من نصيب عبد الله فقد قام بربطها ربطاً محكماً فى أثناء هذه الأيام المريحة الهادئة . كما كانت الحبال من نصيب كارلو الذى قام بإعدادها وربط الدفة بها . . . وكان إعجابنا شديداً بقوة احتمال رع وقدرته على الصمود هذا الزمن الطويل برغم نصائح الخبراء .

كان رع قارباً من الورق لم يتحطم فيه غير الأجزاء الخشبية ، وأثبت نبات البردى أنه أقوى مادة من مواد البناء وقوته فى البحار المفتوحة والمحيطات لم يدركها النظريون والخبراء . بل لم يعرفوا عنها شيئاً . وكان من الخطأ الاعتقاد السائد أن قوارب البردى القديمة كما رسمت أو نقشت فوق جدران المدافن فى مصر كانت مجرد قوارب بدائية . . . وأن قارب البردى المصرى ، وكذلك الطوف ، سبحا وطافا فوق المياه بقدرة خارقة . حتى إذا كان قاع كل منهما مثقوباً . وكان كل من رع « وكون تيكى » طوفين لأنه لم يكن لهما هيكل . ومع ذلك فمقارنة رع بالطوف الطويل





حمل من الفاكهة والجرائد يبعثها جورج أماء

« كون تيكى » تمامًا كمقارنة سيارة ذات محرك بعربة تجرها الخيول ، فالحصان يستطيع أن يجر العربة ولكن لى تقود سيارة لا بد لك من معلم وترخيص . ولم يكن معنا معلم أو ترخيص . كل ما فى الأمر أننا رحلنا فوق قارب مصرى ولم نحلم مطلقاً أنه قارب خاص بل طوف بسيط لا يحتاج إلى خبرة ودراسة . . . حقيقة لقد صنعناه من أجود أنواع البردى ولكنه كان كالسيارة . فإذا لم يتعلم الإنسان كيف يستخدم كل جزء منه فمن السهل أن يخرب فيه أشياء هامة قبل أن يكتشف بعد التجربة كيف يستطيع أن يجعل جميع أجزائه تعمل . وكنا فى الواقع نتعلم باستمرار من فشلنا ونجاحنا فى أثناء إدراتنا لهذا القارب الأسطورى الممتاز . . .

\* \* \*

فى الرابع من شهر يوليو أيقظنى جورج ، وعلى وجهه تعبير قلق واضطراب ، فقد رأى مزاريب الماء تتدفق فى الأفق البعيد . وكانت الشرائط السوداء بين البحر والسماء تبدو مقلقة حقاً عند ما نهضت شمس الصباح ، وكانت هناك أمطار ، وبعد قليل هطلت بغزارة فوق القارب ، ودوت الرعود فاستيقظ البحارة ، وخرج كل منهم ليغسل جسمه من الملح العالق به . . . وكانت القوارير طافحة بالماء فلم نملأها هذه المرة من مياه الأمطار . وظلت السماء تمطر طول اليوم ، وفى اليومين التالين ، حتى أصبح القارب مبتلاً وثقيلاً . وغيّرت الرياح التجارية من اتجاهها وبدأ رع وكأنه يسير على أطراف أصابعه بهدوء وسكون فهل كان هذا مجرد هدوء وسكون قبل هبوب العاصفة ؟ . . .

وفي الخامس من شهر يوليو رأى جورج المصرى قوس قزح لأول مرة في حياته . وامتلأت السماء بأقواس قزح ، بينما تبعثرنا فوق القش الجاف ، وأشعل نورمان المصباح الزيتي ، وصعد به أعلى الصاري . . . . وكنا قد قطعنا ١٢٥٠ ميلا أو ٤٠٠٩ كيلومترات ، أى عبرنا نصف المسافة وكان ذيل رع يعطلنا بعض الشيء فقد هبطت السرعة إلى أربعين ميلا في اليوم الواحد .

وعدنا نتناقش من جديد عن البحارة البدائيين الذين وصلوا إلى أماكن بعيدة متفرقة في العالم من ألوف السنين . وكانوا عادة يسIRON بجوار الشواطئ ، ولكن هذه السواحل كانت دائماً من أخطر الأماكن التي يبحر فيها الإنسان . وتكون العاصفة عادة أشد عنفاً وضراوة عند الساحل عنها في داخل المحيط . وتدرج الحديث عن قوارب الورق ، وقدرتها على عبور البحار المفتوحة ، والمحيطات . وإذا أراد أى عالم أن يختبر عوداً من البردى في معمله الخاص فسرعان ما يعطب عود البردى بعد مرور أسبوعين . لذلك جاءت نظريتهم التي تقول إن القارب لا بد أن يغرق بعد أسبوعين ، وهذا خطأ جسيم وقعوا فيه . . . . وكان أجدر بهم أن يقوموا بالتجربة في البحر ذاته . فقد مرت علينا سبعة أسابيع ونحن في البحر فوق القارب الورقي رع المصنوع من نبات البردى ، وكان يحملنا ومعنا أطنان من البضاعة بدون أن يضجر . وقد كشفت التجربة عن أن بناء القوارب الورقية في مصر ويرو كانوا يعرفون تماماً أن أعواد البردى تمتص الماء خلال ما بها من شقوق أو من نهايات أطرافها

المقصودة ، وليس عن طريق غلافها اللينى أو المتليف الذى يغطى العود .  
لذلك استخدموا فنًا خاصًا عند بنائهم لهذه القوارب الورقية ، وضغطوا  
نهاية كل عود بحيث لا يتسرب إليه الماء مطلقًا . . . ونتج عن ذلك  
أن البردى وقوارب البردى شيئان مختلفان تمام الاختلاف . قال عبد الله  
معلقًا : ما دامت الحبال قادرة على الاحتمال فإننا سنظل نطفو وإذا  
تهدلت فسوف يمتص القارب كميات من الماء وإذا تقطعت فسوف تغرق  
جميعًا . . .

قبل أن ينقضى شهران كنا قد اعتدنا على البيئة من حولنا . وكنا  
نشعر بأننا نعاصر هؤلاء الذين ابتدعوا هذه القوارب الورقية وملأوها  
بالقوارير ، والسلال ، والحبال ، والطعام ، والملح ، والعسل . . . ولا بد  
أن رجال البحر فى العصور القديمة والوسطى اكتسبوا نفس الخبرة التى  
اكتسبناها فى هذه الرحلة المثيرة . لم يكن هناك شىء جديد ؛ ولم يكن  
هناك شىء غريب . مشاكل عادية . وشعورنا بالقلق والراحة وقارب من  
البردى الأصفر يطفو على وجه المياه بين السماء والبحر . وفوق هذه الحزم  
من البردى كنا نخرج الزمن . . . ليس فىنا عالم الآن بل كنا جميعًا  
أجهزة وآلات فى تجربة علمية تكيف نفسها . وبدأ الزمن يفقد مقاييسه  
تدريجياً ، وازدحم من حولنا أجدادنا ، واقتربت منا القرون البعيدة وتمزقت  
صورة الزمن . فالتايكنج كانوا هناك فى الأفق البعيد فى شمال الأطلنطى ،  
وكولبس يندفع بمراكبه ، وفى نفس الطريق الذى نعبه . وبعد قليل  
أصبح بناء الأهرام ، أجداد جورج ، بجوارنا ، وفجأة قال

جورج : لو تحملت الدفة لاندفعت برع خلال قناة بناما عبر  
الباسيفيكي ، وإذا لم يصلح القارب هذه المرة فسوف أبني قارباً  
جديداً وأبحر به من جديد . فقد أصبح من البديهي أن أجدادى كانوا  
أول من عبروا الأطلنطى على الأقل فى اتجاه واحد . . .

فقلت : ليس ذلك من البديهي يا جورج . . . أما البديهي فهو  
أنهم إذا كانوا قد حاولوا فلا بد أنهم قد نجحوا . فقارب البردى أكثر  
صلاحية للبحر من أى شىء آخر ، ولكن لم يكن المصريون وحدهم يمتلكون  
قوارب من الورق ، فقد استخدمت هذه القوارب من أحد أطراف العالم  
القديم المتحضر إلى الطرف الآخر ، من الفرات إلى الساحل الأطلنطى  
لمراكش . . .

قال جورج : إذن لماذا قلدنا رسوم المقابر المصرية القديمة ما دمنا  
لم نرد أن نقلد البحارة المصريين القدماء ؟

فقلت : لأن مصر وحدها كانت تحتفظ بصور عصرية للقوارب  
البردية بكامل تفاصيلها ودقائقها ، وشكراً للفراعنة وجو الصحراء الذى حفظ  
لنا هذه الكنوز فعرفنا تفاصيل الحياة اليومية المصرية منذ أربعة أو خمسة  
آلاف سنة .

كان أحد الصناديق الستة عشر التى كنا ننام فوقها كل ليلة يحتوى  
على مجموعة من الكتب النادرة التى سجلت حضارات العالم المختلفة . وفى  
حضارة ما بين النهرين القديمة عثرنا على صورة نادرة لصخرة من الصخور  
رسم عليها قارب مصنوع من نبات البردى فى معركة من المعارك البحرية .

وآخر كان يستخدم في السلم أو بعد الحرب . . . وهذه كانت أنقاض مدينة ( نينوى ) Nineveh التي تبعد عن مصب نهر دجلة بثمانمائة كيلو متر ، وتبعد كذلك عن ميناء بايبلوس Byblos على البحر الأبيض المتوسط ، بنحو ستمائة كيلو متر . وكشفت هذه الآثار عن نوعين من قوارب البردى وحزم من نبات البردى رتبت بالطريقة المصرية ، وقد قُوس مقدم السفينة وثبتت دفتها إلى أعلى . . . وقد ازدحمت القوارب بالناس ومن حولهم الأمواج تمثل المحيط ذاته ثم أسماك سابحة . . . وظهر قارب ثالث وهو يفر من المعركة البحرية وعليه بحارته يصلون للشمس . . .

هذه القوارب التي كانت تستخدم في المعارك البحرية اختلفت كثيراً عن غيرها من القوارب التي ظهرت وراء أعواد البردى ، فهي مستقيمة غير منحنية في المقدمة أو المؤخرة . ولولا وجود هذه الرسومات على جدران المقابر لما صدق إنسان وجود قوارب البردى في مصر وقد اختلفت تماماً كما اختلفت نبات البردى . ولكن القوارب التي ظهرت في دجلة والفرات ظهرت أيضاً في بيرو وبرغم بعد المسافة بين البلدين . وبرغم أن الحضارات القديمة ذوت وانقرضت ، إلا أن بعض قوارب البردى ظهرت في دائرة حول مصر وفي بلاد ما بين النهرين وإثيوبيا وأواسط أفريقيا وسردينيا ومراكش ، وكذلك في سائر المناطق الأمريكية ذات الحضارة القديمة وفي جزيرة إيستر . وها نحن أنفسنا ومعنا قرد وبطة في طريقنا إلى أمريكا على قارب صنع في أفريقيا . . .

وإذا كان المصريون القدماء لم يتعدوا جبل طارق بقواربهم فهل



كانت هناك شعوب أخرى عبرت ذلك المضيق إلى الأطلنطي ؟ . . .  
 نستطيع أن نرد على هذا السؤال بنعم . . . فالفينيقيون ظاوا لعدة  
 آلاف من السنين أقرب جيران للمصريين في شرق البحر الأبيض المتوسط  
 وعبروا بصفة مستمرة مضيق جبل طارق ومنه إلى الساحل المفتوح لمراكش  
 وتوغاوا إلى ما وراء ميناء صافي وكيب جوبي ومنها إلى جزيرة موجادور Mogador  
 جنوبي صافي . وينتقب علماء الآثار الآن بحثاً عن آثار للفينيقيين في  
 ساحل ريودي أورو Rio de Oro جنوبي مراكش . واكتشف رجال

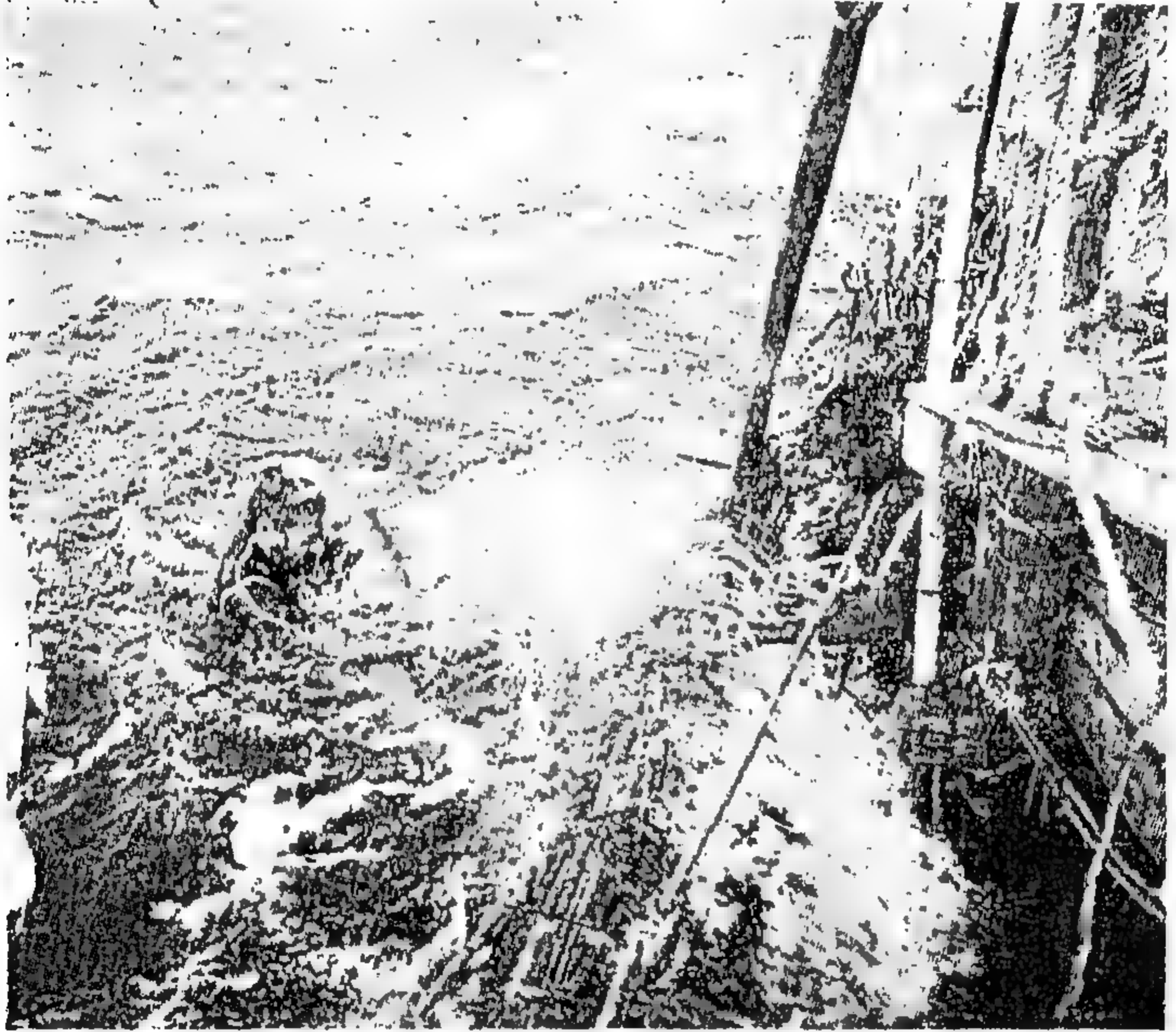


عبد الله جبرين يحاول ترميم القارب بعد أن صدعته الأمواج

الآثار أيضاً أن الفينيقيين كانت لهم قدم ثابتة بين الجوانشيين في جزر  
كنارى . وأنهم كانوا يستخدمون هذه الجزر كمراكز أو نقاط هامة لكي  
يعبروا منها إلى كيب جوبى وكيب باجادور Cape Bajador .

في إحدى كتابات هيرودوت بعد زيارته لمصر قال إنه في زمن الفرعون  
نكاو Necho الذى حكم مصر حوالى عام ٦٠٠ قبل الميلاد أرسل  
المصريون أسطولاً من المراكب الفينيقية للدوران حول أفريقيا، وأبحر هؤلاء  
البحارة من البحر الأحمر وعادوا عن طريق مضيق جبل طارق بعد ثلاث  
سنوات . وقالوا في مذكراتهم إن الشمس كانت تشرق وهم مبحرون  
جنوباً من يسارهم فلما اتجهوا شمالاً في طريقهم إلى جبل طارق أصبحت  
تشرق من يمينهم . وبعد فترات طويلة من الزمان قامت إحدى البعثات  
البحرية الفينيقية بحملة كبيرة برياسة هانوبغرض إقامة مستعمرات للتجارة  
خارج أفريقيا وراء جبل طارق . وكانت البعثة تتكون من ستين قارباً  
ومزودة ببخارة وبخمسين مجدفاً وتوغلت في الأطلنطى المجهول . وعبر  
الأسطول المستعمرة القديمة لمدينة الشمس الخالدة ورسا ست مرات على  
طول الساحل المراكشى ليحدد إمكانية المستعمرات الجديدة . وواصل  
الأسطول سيره على طول السواحل الخطرة حول كيب جوبى وعبر جزر  
كيب قردى ليبلغ أنهار الأدغال لغرب أفريقيا الاستوائية . ومن المعروف  
أن الفينيقيين تبادلوا التجارة مع قبائل غرب أفريقيا كما استخدموا القوافل  
التي كانت تعبر القارة لإحضار العاج والذهب والأسود والحيوانات  
الضارية التي كانت ترسل إلى مدن سوريا ومصر ومنها إلى جزر البحر

الأبيض المتوسط وساحل الأطلنطى لمراكش ... فمن هم هؤلاء الفينيقيون  
الذين لا نعرف عنهم إلا الشيء القليل ون الذى علمهم السفر فى  
البحار ؟ ... ون العسير الرد على هذه الأسئلة ...

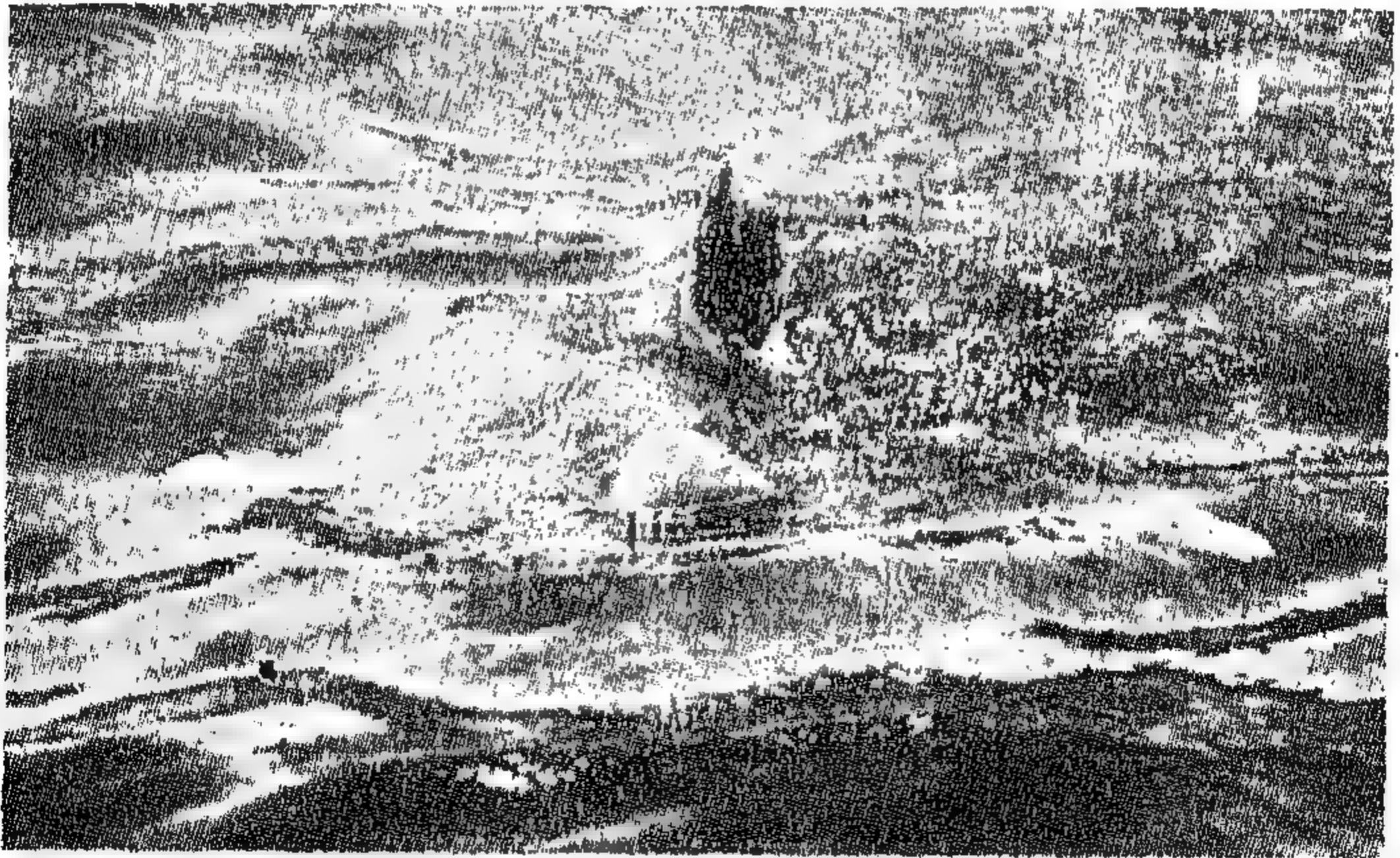


عبد الله وجورج يحيى كان حزم البردى بالإبرة والحبال

يبدو أننا كنا قد اقتربنا كثيراً من ساحل أمريكا الجنوبية لأن  
طيور البحر أول من زارنا من الجانب الآخر ... طيور استوائية غاية فى



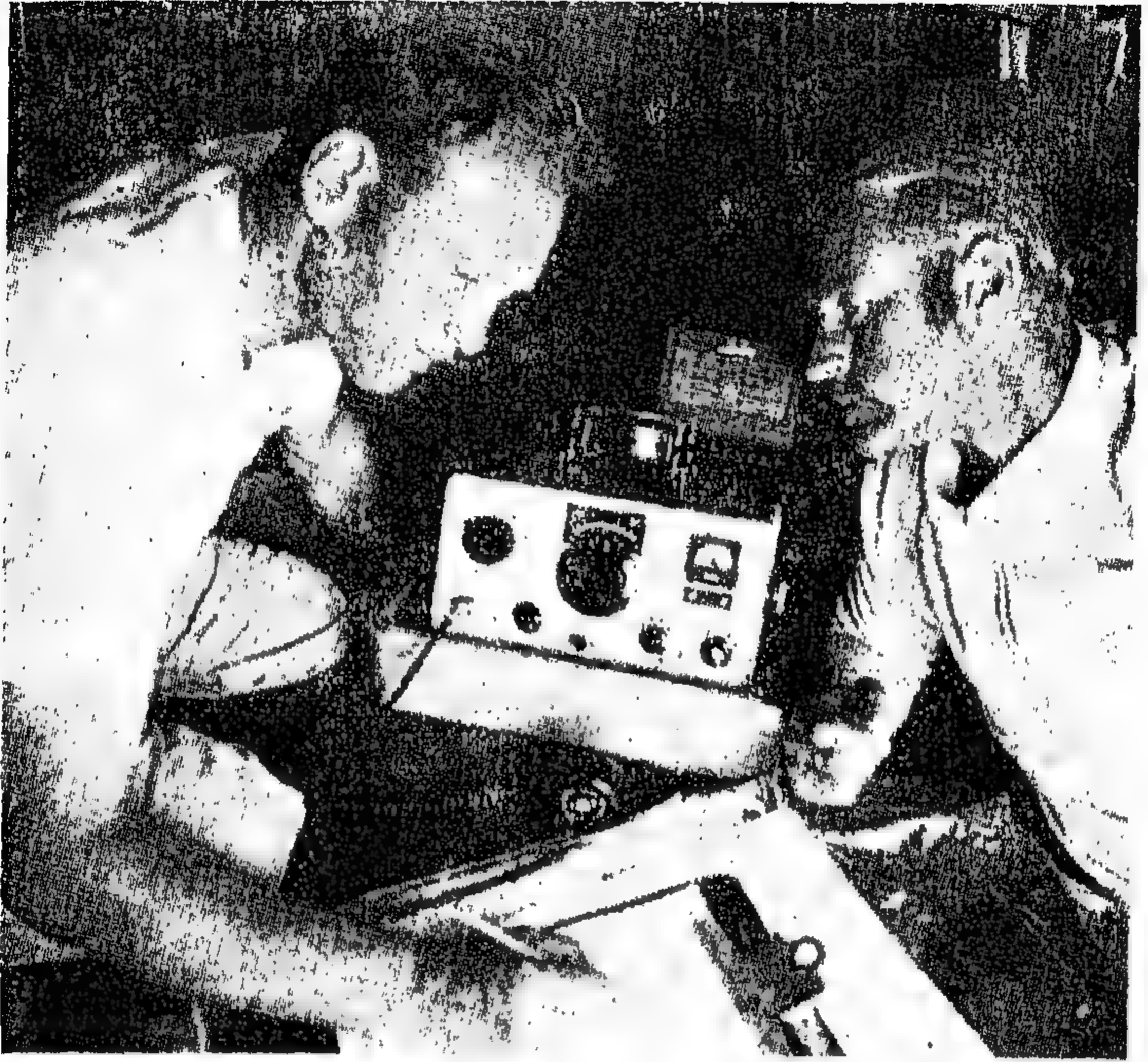
الجمال والرشاقة ، ريشها طويل تطير بنعومة فوق الصاري .  
 وهاجمنا قرش من الخلف وقام بهجوم عنيف على قارب النجاة ، ولم يكتف  
 الوحش الأسود بذلك - وكان طوله يزيد عن ستة أقدام - بل أخذ يسبح  
 بقوة ، ثم نهض وغاص تحت الأمواج ، وعند ما استوى مع القارب رع  
 عاودته وحشيته من جديد فغاص تحت القارب وأخذ ينهش بعض لفات  
 البردي . وكان معنى ذلك تهديداً مباشراً للحيال . . . ومن سابق خبرتي  
 « بكون تيكى » انحنيت فوق القارب وحاولت أن أمسك ذيل القرش  
 الحشن الذى كان يشبه ورق السنفرة ثم رأيت جرحاً مفتوحاً فى ظهر  
 السمكة وعن قرب سمكتين من أسماك القبطان تدوران حوله ، وفى لمح البصر



وهاجمنا قرش من الخلف وقام بهجوم عنيف على قارب النجاة

ألقى جورج رمحه في جسم القرش وقاتل الوحش عدة لحظات ثم اختفى  
وفي ظهره رمح جورج إلى أعماق المحيط . . .

بعد الأسبوع الأول من شهر يوليو بدأ شعورنا بالقلق يزداد لحظة  
بعد أخرى ، لأن موسم الأعاصير قد بدأ في المنطقة التي ندلف إليها ،  
وقد قابل الرجال هذه الظاهرة بهدوء عميق . وفي اليوم الثامن بدأت العاصفة  
تهب من كل مكان ومرت بنا عدة أيام ، ونحن نواجه الأهوال ، وربطنا  
أنفسنا بالحبال حتى لا تقذفنا الأمواج إلى البحر . وفي اليوم التاسع جاءني  
جورج ليبلغني أن الحبال الرئيسية قد تكومت على السطح ، وهبط على  
الخبر كالصاعقة ، فأسرعت في قفزة واحدة نحو المكان فرأيت مشهداً  
لا يمكن أن أنساه . فقد انقسم القارب بالطول إلى قسمين ولم أر في  
حياتي الأطلنطي بهذا الصفاء وهذا العمق ، وامتقع لون عبد الله وقال في  
هدوء إنها النهاية لا محالة . فقد ذابت الحبال وحطمت السلسلة وسوف  
تفكلك الحبال جميعها في مدى ساعة واحدة ، وفقد عبد الله كل أمل .  
فوقفت ووقف جورج بجوارى وقد شلت حركتنا تماماً . . . وأخيراً  
بدأنا نتحرك قفز جورج إلى اليم ويده حبل سميك . وتتحرك عبد الله وفي  
يده إبرة من الحديد . وحاولنا أن نحيك القارب الورقي . وسبح جورج  
تحت رع ومعه الحبل السميك ليربط به القارب ويجمع شمله . وبدأ  
عبد الله ينحيط القارب ، وفي كل مرة كان جورج يضع الحبل في عين  
الإبرة وهكذا . ومع ذلك ظل رع ساجداً لا يعبأ . بشيء مما حدث له .  
وأبرق نورمان في طلب النجدة وجاءه الرد أن السفينة إيفون سوف تقابلنا  
بعد أربعة أيام . . .



نورمان وهاميردال يتصلان لاسلكيا بسفن الإنقاذ

ويعمر يومان، وفي اليوم الحادى عشر من شهر يوليو هداً البحر واستكان، ولكن رع بدأ يصدر عدة أصوات غير مريحة من الجانب الذى حيكت فيه حزم البردى. وفي اليوم التالى اتجهت نحونا طيور الساحل لتزورنا. ومن اللاسلكى سمعنا صوت اليخت الذى يتجه نحونا وأنه سوف يتأخر بعض



الوقت . وأخيراً آجاء اليخت فإذا به سفينة صيد أكل عليها الزمان وشرب . وتبادلنا مع البحارة بعض الإشارات ثم انصرف اليخت من حيث جاء . وأصبحنا وحيدين في المحيط مرة أخرى . وبدأت الأمطار تهطل من جديد وتشتد الرياح . ونشطنا للعمل . فلم يبق أمامنا غير أيام ونصل إلى الشاطئ ، واهتز رع اهتزازاً ونهض البحر وفار واستمر الشراع المصري مرفوع القامة لا يعبأ بالعاصفة وكان يبدو لنا وكأننا نمتطي صهوة وحش كاسر . . . .

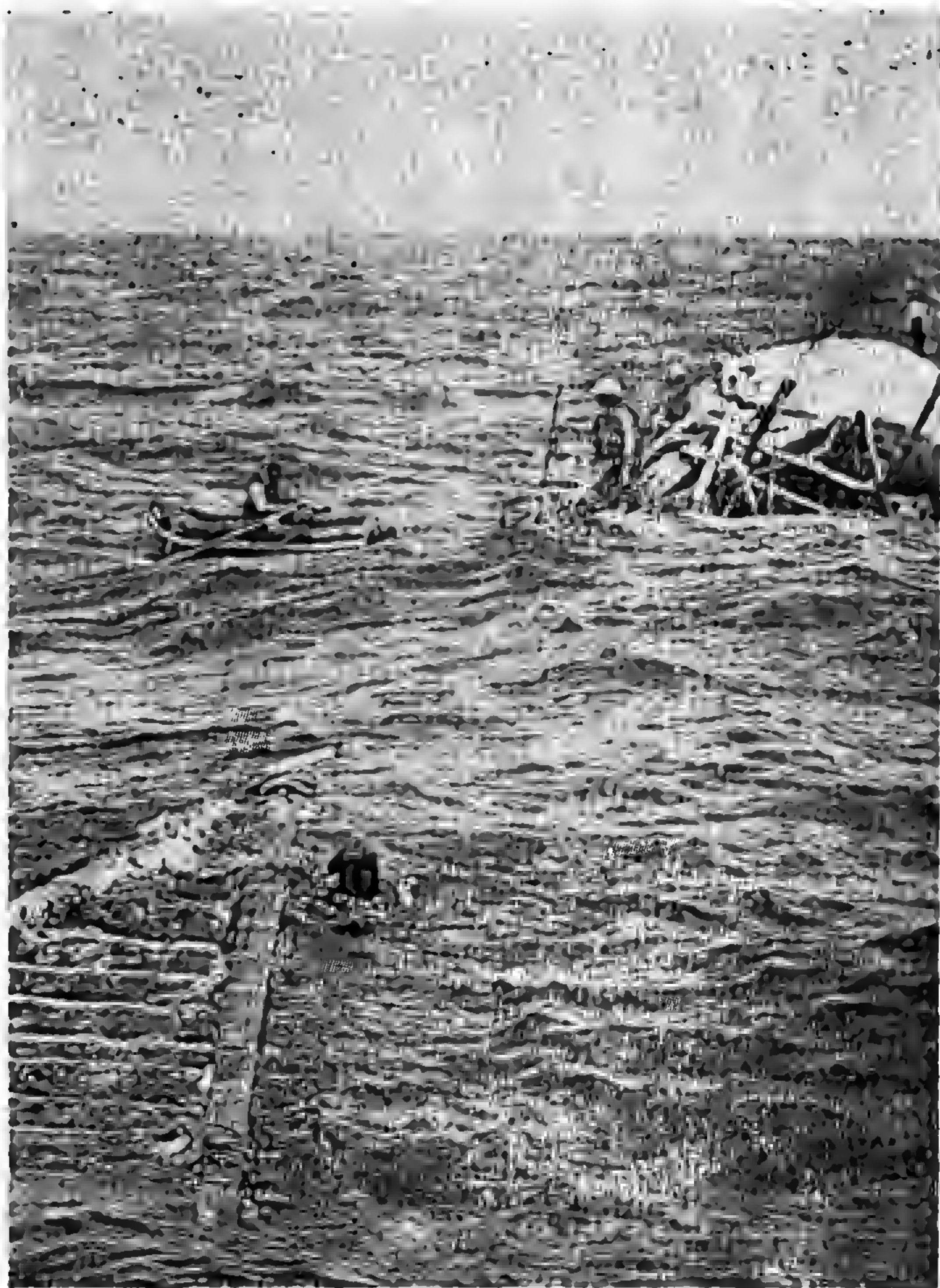
تلبد الجحوش وهطلت الأمطار ورع يسرع في سيره وكأنه يقلل من شأن الأعاصير والأنواء . وسقطت أطنان الماء بعنف على ظهر القارب وظل الحال على هذا المنوال لمدة ثلاثة أيام كاملة وتسابق رع مع البحر الغاضب وعاد جورج وعبد الله يحكيان حزم البردى من جديد . . . .

وفي الرابع عشر من شهر يوليو اتصلنا باليخت شنندوه وهو يتجه شرق بربادوس Barbados وعرفنا أن العاصفة بلغتهم أيضاً وقد يصلنا في بحر يوم أو يومين . وفي الواحدة صباحاً أعلن يورى أن الساحة قد تحطمت وأمر بأن يخرج كل إنسان من المقصورة أو من مكانه . ومع ذلك فالشراع منشور ، ولكن القيادة أصبحت عسيرة . وفي الصباح اكتشفنا أن يورى كان يقود القارب بمجذاف عادي . . . .

وفي اليوم الخامس عشر بلغت العاصفة ذروتها ، ولم يعد في استطاعة الشراع أن يقاوم أكثر من ذلك فطويناه . ولعت البروق وهطلت الأمطار . وبعد يوم كامل اتصلنا باليخت شنندوه فطلب إلينا القبطان أن نرسل



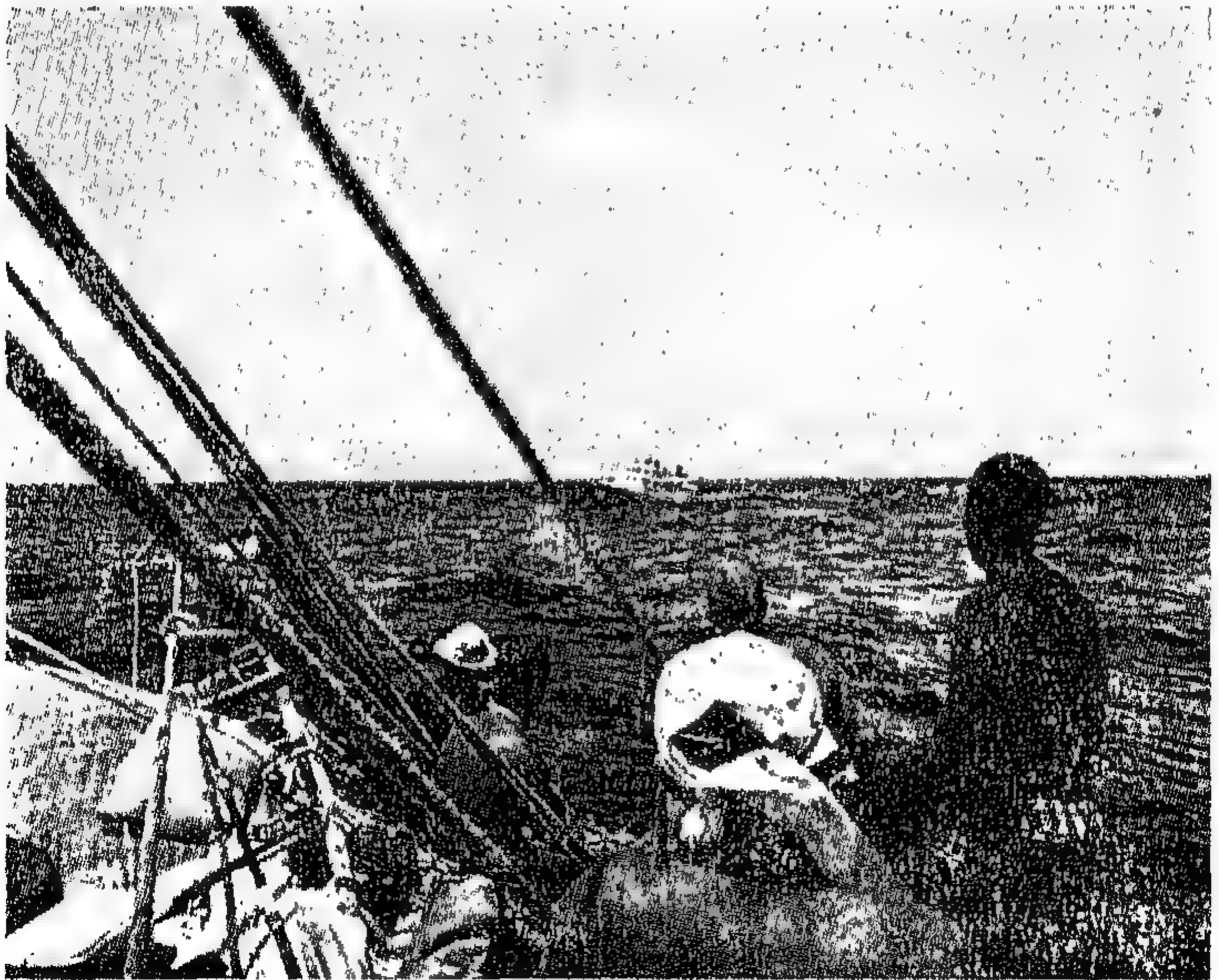
القارب رع يتحطم تماما وتفشل الرحلة الأولى



القارب رع وقد انقلب على ظهره وجورج يسبح بجوار الصاري

إشارات بعد الظلام لتحديد مكاننا . وكانت الرياح قد هدأت ولم يكن في استطاعتنا أن نشعل صواريخ الإشارات فاتصلنا بالقارب مرة أخرى ، فأخبرنا بدوره أن نفس الشيء حدث لإشاراته المبتلة ، وكان من العسير علينا أن نعرف أو نحدد مكاننا بعد العاصفة . . .

وفي عصر يوم ١٦ يوليو كان الجو قد تحسن كثيراً فمكثنا نبحث عن اليخت في كل اتجاه وأخيراً ظهر اليخت . أما كيف نجونا من العاصفة



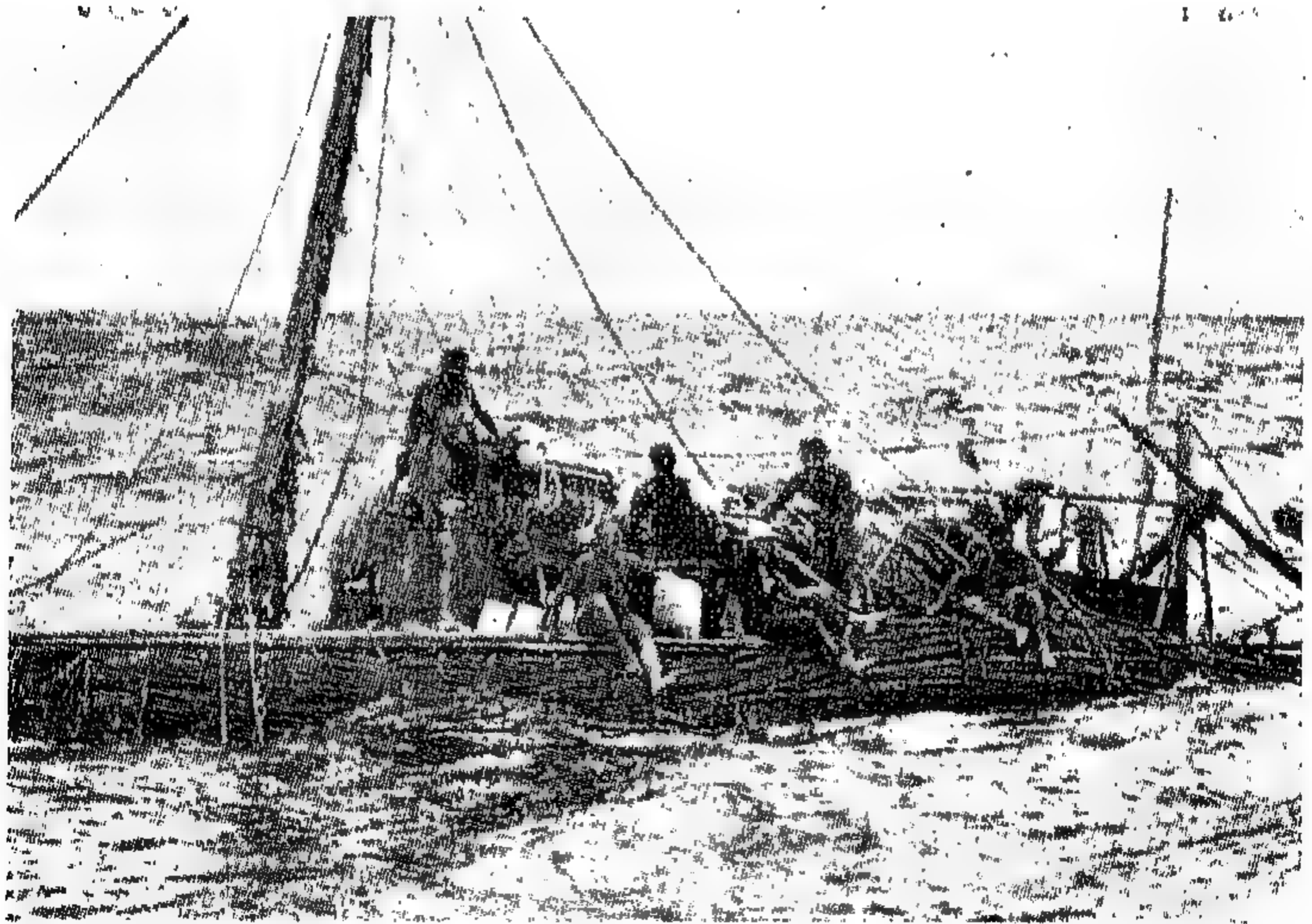
يخت أمريكي جاء ليصور آخر مراحل الرحلة



فوق ما تبقى من القارب رع فقد كان الأمر من قبيل المعجزات ، وطار طائر أسود فوق رؤوسنا وظهرت أسماك القرش تقطع المياه من حول رع و يبدو أن القروش كانت تتبع اليخت من الجزر وكان القارب قد شرع يغوص تحت الماء إلى الأبد . ونزل قارب مصنوع من الكاوتشوك إلى الماء وانفجرت أسارير عبد الله عند ما رأى رجلا في مثل لونه يطل عليه من اليخت وحياء عبد الله بلغة بلاده «تشاد» . ثم بالفرنسية وأخيراً بالعربية . وهبطنا بسرعة إلى القارب بعد أن قضينا ثمانية أسابيع في رع . وفي يومى ١٧ و ١٨ يوليو نقلنا الأشياء الحامة إلى اليخت ، وشرعنا نربط أو نحيك حزم البردى بعضها ببعض ، وغاص جورج تحت رع وبدأنا نرى أسماك القرش وقد أحاطت بالقاربين . وحاول قرش أن يلتهم جورج فأسرع الأخير وتعلق برع وكان القرش قد اقترب من ساقه وكانت ساق جورج بها علامة عضه قرش سابقة فمنعته من النزول إلى الماء مرة أخرى .

أصبح القارب رع عبارة عن حزم من البردى تطفو فوق الماء لا شيء أكثر من ذلك . وناديت على الرجال أن يعودوا إلى رع ، وقلت إنه يبدو أن فى ذلك نهاية للتجربة فقد عشنا على ظهر القارب لمدة شهرين ، ومع ذلك فقد ظلت أعواد البردى طافية قطعنا خلالها ٥٠٠٠ كيلو متر . وأثبت هذا أن القارب البردى يستطيع الإبحار فى المحيطات . لقد حصلنا على الجواب وليس هناك من سبب لفقدان حياتنا . وكان مما قاله جورج وأنا أحاول أن أحصل من كل رجل على

رأيه في مواصلة التجربة : هذا قارب مصرى وأنا أمثل مصر ولا بد أن  
أواصل التجربة ما دامت حزمة البردى تستطيع أن تحملنى فوق المياه .  
ولكنى اتخذت قراراً مخالفاً كان وقعه شديد الأثر . . . لقد قررت  
ألا يقوم الرجال بمخاطرة أخرى وقد استبد بهم التعب وعانوا من الأحوال  
مالم يعاذه إنسان من قبل . . . كان القرار لى وحدى . . .



بحارة السفينة رع قبل أن يتحطم القارب . من اليسار إلى اليمين : نورمان وجورج  
ويورى وعبد الله وثور وكارلو وسانتياجو



## الباب الحادى عشر

### ستة آلاف كيلو متر فوق قارب من الورق

استيقظت من نومي مضطرباً . . . تتقاذفنى الهواجس والأوهام . . .  
المياه من حولى فهل كنت أحلم . وهل انتهت فعلاً رحلة رع ؟ وهل كان  
ذلك حلمًا مزعجًا عند ما غرقت مؤخرة رع فحطمنا الشراع ؟ . . .  
وهل كانت هذه مجرد أضغاث أحلام وأنا لم نترك بعد الحطام الغارق ؟ .  
اختلط على الأمر لحظة وأنا أحاول أن أتبين الحقيقة من بين هذه الأوهام .  
إن الرحلة فوق رع قد انتهت . . . وكنت قد أقسمت ألا أحاول هذا الأمر  
ثانية . . . ولكن ها أنذا فى مقصورة مجدولة من الأغصان . . . ونفس  
الفتحة التى تطل على العالم الخارجى حيث تصطبغ الأمواج العاتية  
تحاول أن تتناول على سماء الليل . . . وهناك نفس الشراع المصرى كما  
هو لم يتغير ، منشور فوق الصارى القوى . وفى مؤخرة السفينة الذيل الرفيع  
لقارب البردى يرتفع من فوقنا فى انحناءة رشيقة متعالية برغم أننا رأيناها يغوص  
بحسرة وألم فى البحر الصاخب . . . كنت متعبًا وذراعاي يؤلمانى . فجلست  
عند ما جاء نورمان زاحفًا على ركبتيه وأضاء المصباح فى وجهى ثم سلطه  
على رأس به لحية حمراء ينام صاحبها فى زكينة بجوارى وقال نورمان :  
جاء ميعاد دور يتكما يا ثور وكذلك أنت يا كارلو . . .

التقطت مصباحي الصغير وأنرته . . . وكان هناك الآخرون كارلو ،  
وسانتياجو ، ويوري وجورج ، وبينهم رأيت وجهًا غريبًا غني . . . وجه  
رجل أسوي شعره فاحم ، وكان صاحب ذلك الوجه هو « كي أوهارا »  
Kei Ohara من اليابان . ولكن كيف جاء على القارب رع ؟ طبعًا  
تذكرت . . فنحن الآن على القارب الثاني . وكنت قد بدأت كل شيء  
من جديد . . . وكنا قد ابتعدنا عن القارة الأفريقية مرة أخرى . ولم نمر  
هذه المرة بكيب چوبى . ولم يكن عبد الله ذلك الواقف هناك عند الدفة  
والذى جاء ميعاد انتهاء نوبته . بل كان الرجل أفريقيًا آخر لم أعرفه  
جيداً من البربر يدعى مدنى آية أوهانى Madani Ait Ouhanni . . .  
وفوق الجسر كان البرد شديداً وأرائى ( مدنى ) كيف أدير مجدف  
الدفة للابتعاد عن الأرض من غير أن تطوى ريح الساحل الشراخ العظيم .  
واتخذ كارلو مكانه لمراقبة الأنوار من الأرض والسفن . وشعرنا بالخطر  
يحدق بنا من كل جانب حتى استطعنا أن نخرج من الساحل الصخري  
للصحراء ومن بين السنين العديدة التى تجرى هنا وهناك حول أفريقيا .  
ولكن سبق أن فعلنا ذلك . . . وكانت هذه المرة إعادة جريئة  
لرحلتنا السابقة ، وكنا قد عبرنا كيب چوبى وما نحن نبحر مع الريح مرة  
أخرى وفى مخاطرة جديدة . فلماذا لم نبدأ من وراء كيب چوبى هذه المرة ؟  
ولماذا نحن على سطح رع الثانى ؟ ولماذا أعدت هذه المخاطرة مرة أخرى ؟  
هل أستطيع الإجابة على هذه الأسئلة ؟  
أجاب كارلو بدلا غنى : لا بد أن تقطع هذه الأميال القليلة الباقية

على باربادوس بعد أن وصلنا على روع الأول إلى نقطة الاقتراب .  
 لقد دفعنى كارلو وزملاؤه على إدارة العجلة من جديد لأننا كنا على  
 قيد أميال للقضاء على شكوكنا . . . كما كانت رغبتنا جامحة لاستطلاع ما  
 إذا كان فى الإمكان حقاً أن نعبّر المحيط على قارب ورقى مصنوع  
 بطريقة أفضل . . . بعد أن اكتسبنا خبرة واسعة . . . لقد حدثت  
 أشياء كثيرة فى أثناء المدة التى مضت بين إرساء روع الأول وروع الثانى . .  
 فقد رأيت فى هذه الشهور العشرة ، التى تفصل بين الحادثتين ، العديد  
 من قوارب البردى . . .

فى مستنقعات بحيرة أورستانو Oristano Marshes الواسعة  
 نزلت مع كارلو مورى إلى أحد هذه القوارب التقليدية المصنوعة من نبات  
 البردى لألقى نظرة على أبراج سردينيا . . . ما أكبر الشبه بين هذه الأبراج  
 وأبراج المايا التى كانت تطل على الأهرامات ، وبدانها لوحات دقيقة  
 التفصيل لبحارة بيض يحاربون رجالا داكنى البشرة على الشاطئ . فهل  
 هناك حلقة مفقودة ؟ وهل بنى سادة مايا ومهندسوها المعماريون أبراجاً  
 مثل تلك الأبراج المنتشرة فى سردينيا ؟

فى هذه المرة فكرنا فى بناء القارب روع فى مراكش أو ما يطلقون  
 عليه هناك اسم ( ماديا ) أى قارب مصنوع من نبات البردى . وفى ميناء  
 العرائش بالقرب من مصب نهر لوكاس<sup>(١)</sup> بدأنا العمل ، وبعد سفر  
 يومين مع أحد البربر حاولنا العثور على آثار العربات التى اتجهت نحو

إحدى القرى النائية . وأخيراً عثرنا على الطريق بعد أن ترجلنا عن السيارة ورأينا أكواخاً وكهوفاً يرجع تاريخها إلى العصر الحجري ، مسقفة بأعواد البردى . وفي هذه القرية البعيدة كان سكانها بيض البشرة زرق العيون وبها آخرون من الزنوج . . . . وصنع لنا بناء القوارب رع الثانى قوياً فتياً يتحمل السفر فى البحار والمحيطات لعدة أشهر . . .

فى هذه المرة كان رع الثانى أقوى من رع الأول . وفى هذه المرة أيضاً جئنا بأعواد البردى من منابع نهر النيل لأن نبات البردى فى مراکش لم يناسبنا ، ولم يستطع عبد الله أن يحضر موسى وعمر من تشاد لبناء القارب الحديد بسبب اضطراب الأحوال السياسية هناك . . . . وفضلت أن يقوم ببناء القارب خبراء مراکش الذين يبنون عادة قوارب قوية على نمط قوارب البحر الأبيض المتوسط بمؤخرة ترتفع فى الهواء تماماً كالمقدمة . ولا يزال سكان أمريكا الجنوبية يبنون قواربهم بنفس الطريقة فى بوليفيا وبيرو ويتبعون نفس النظام الذى كان يستخدمه المصريون القدماء فى ربط القارب بالحبال ، بحيث يتكون جانب السفينة من حزمة واحدة وبطريقة تختلف تماماً عن بنائها فى بحيرة تشاد حيث يتكون جانب السفينة من عدد من الحزم مربوطة جنباً إلى جنب . . .

فى هذه المرة أحطنا عملية بناء القارب بسرية تامة حتى أتفرغ لكتابة تفاصيل رحلة رع الأول . وقام صديقى ماريو بوتشى بشحن اثنى عشر طنّاً من أعواد البردى إلى ميناء صافى تحت اسم مستعار « بامبو » حيث فرغت الشحنة واختفت فى الحال ووصل كذلك إلى مطار الدار

البيضاء Gasa Blanca أربعة من هنود إيمارا، ومعهم مترجم بوليغى واختفوا كذلك فى هدوء . ومن مصر جاءنا قماش الشراع ووصلتنا مقصورة مجذولة من البوص أيضاً من إيطاليا . ووصلت مراکش أخشاب لصنع الصارى ، والمجاديف وكميات من الحبال بدون أن يلاحظها إنسان ولم يعرف أحد بخبر بناء ر ع الثانى غير عدد قليل جداً من الأصدفاء . . .

وفى اليوم السادس من شهر مايو سنة ١٩٧٠ ولد ر ع الثانى حيث تحرك ببطء شديد وكأنه طائر من الورق خرج من بيضته ودشنت السيدة عائشة زوجة حاكم صافى القارب ر ع الثانى ، وتناثر لبن الماعز فوق القارب الجاف قبل أن ينزلق إلى الماء . ودوت فى الأفق عاصفة حادة من التصفيق ، فقد ازدحم الميناء بألوف الناس جاءوا من كل مكان . . . وانزلق القارب إلى الماء فدوت عاصفة أخرى من التصفيق ، وفجأة هبت ريح عاتية أدارت القارب ثم دفعته دفعاً إلى صخرة عالية فتعالت الصرخات وأخفى الناس وجوههم بين أيديهم . واصطدم ر ع الثانى بالصخرة العاتية وتلقى ذيل ر ع الثانى الصدمة فانشى كالريشة . . . وتحطمت القلوب فقد أصيبت الدفة . الجزء الذى لا بد أن يكون سليماً معافى هذه المرة ، واستدار هيكल القارب ورقص فوق قمم الأمواج ومنها إلى الصخور . . . ولم يستطع إنسان واحد أن يوقف القارب فى هذه الريح الصرصر العاتية ، وبدا أن التجربة قد انتهت قبل أن تبدأ . . . ولكن لا . . . فالذيل الذى انشئ من هول الصدمة استرد هيئته كأنه زنبك . . . وارتد القارب ككرة من الكاوتشوك مرة ومرتين . لو كان قارباً من الخشب لتحطم وهوى إلى

القاع . أما رع الثاني فلم يخذش نخذشاً واحداً . مجرد علامة بسيطة فوق أعواد البردى الذهبية . ثم استطاع قارب الإنزال أن يلتقط الحبل ويجذب رع الثاني الذي راح يرقص يمينا ويساراً في العاصفة الهوجاء . . .

لقد كان رع الثاني قوياً متماسكاً بدرجة مذهلة فلم يهبط بوصة واحدة في البحر وكان رع الأول يسابق الريح كأنه ثعبان . أما رع الثاني فقد كان خشناً قوياً كأنه كرة سلة . وأعجب بحاة القارب بالتصميم الهندي الرائع الموروث .

كان الهنود الأربعة الذين بنوا رع الثاني هم : ديميتريو Demetrio و جوزيه José وبولينو Paulino والمترجم البوليني سينيور زيبالوس Zeballos وكان طول القارب بعد الانتهاء من بنائه ٣٩ قدماً وعرضه ١٦ قدماً وسمكه ستة أقدام . وطول المقصورة الرئيسية ١٣ قدماً وعرضها تسعة أقدام وتتسع لثمانية أشخاص . وكان أقصر من رع الأول بعشرة أقدام . . .

في هذه المرة غمس بناء القارب أطراف أعواد البردى في القار حتى لا تمتص الماء ، وفكرت لماذا لا نطلي القارب كله بالقار ، وبذلك لا يهبط في الماء إلا بقدر نصف بوصة فقط ؟ وربما كان المصريون يفعلون ذلك لأن جدران القوارب القديمة كان لونها أسود وليس أخضر أو أصفر . . .

وبعد انتهاء رحلة رع الأول كتب إلى كثير من رجال الدين يقولون إنه طبقاً لما جاء في الإنجيل فقد كان فلك نوح مطلقاً بالقار وأن أم النبي موسى عند ما وضعت في سلة وهو طفل صغير وألقت به إلى النهر استخدمت القار أيضاً في طلاء السلة المصنوعة من أعواد البردى . ومع



ذلك فقد كانت هناك قوارب من البردى غير مطلية بالقار وكانت تطفو ما دامت الحبال تتحمل قوة التيار . . . وفى ريع الأول استخدمنا كميات هائلة من الحبال . أما الهنود الذين صنعوا ريع الثانى فلم يستخدموا غير حبال رفيعة لفوها بطريقة حازونية من مقدمة السفينة إلى مؤخرتها . . .

اندفع بنا ريع الثانى بسرعة يقفز فوق قمم الأمواج فى نشاط الفتى المراهق الجسور ، وفى اليوم الأول قطع ٩٥ ميلا بحرياً أو ١٧٧ كيلو متراً ، وفى الليلة الأولى عبرنا جزيرة موجادور الصغيرة . وفى اليوم الثانى هبت علينا ريح عاتية من الصحراء فاضطررنا إلى توطئة الشراع حتى لا يتمزق مقدم السفينة إلى شرائط من البردى . وفى اليوم الثالث سكنت الريح واختفى الساحل فى الضباب تماماً . . . وفى اليوم الرابع كان الهدوء قد شمل البحر فقال البحارة : إن القارب يغوص بسرعة أربع بوصات فى اليوم الواحد ! . وكان هذا الحدث أو التجربة جديدة بالنسبة إلينا لأن شيئاً من هذا لم يحدث لريع الأول فماذا حدث ؟ فهل لم تنجح حبال الهنود فى الضغط على أعواد البردى بما فيه الكفاية ؟ أو كان القارب من نوع آخر من البردى هذه المرة ؟

تراهن الرجال . . . هل سنعبّر المحيط هذه المرة أم نفشل ؟ قال اثنان سوف نعبره ، وقال الستة الآخرون : إننا سنفشل لا محالة . . . ولم أدر من منهما كان على صواب . . . كنا نغوص بسرعة . وفى اليوم الرابع جاءنى جورج وعلامات القلق بادية عليه وقال إنه فكر مع سانتياجو وكارلو بضرورة التخلص من الأشياء التى لا لزوم لها بما فى ذلك جرار الماء . . .

فهل كان خبراء البردى على حق هذه المرة ، وأن القارب لن يتحمل أكثر من أسبوعين في البحر ؟ وكنا في حقيقة الأمر قد تركنا القارب ر ع الثاني عشرة أيام في ميناء صافى ليمتص الماء، وغادرنا الميناء منذ أربعة أيام فقط وغاصت حزم البردى تحت الماء إلى نصفها ..

\* \* \*

استقر رأينا على التخلص من قاربى النجاة ووضعنا رسالة في زجاجة وربطناها بالقارب الكبير . . . . . وطار القاربان كبلاونين في اتجاه الشاطئ . ثم ألقينا بزكائب البطاطس والأرز والذرة والدقيق وزكبيتين لم نعرف ماذا كان بهما . . . . . وكان الأفضل أن نجوع بدلا من أن نغرق . ألقينا بالحبوب التي تأكلها الدجاجات وقوارير ولقة كبيرة من الحبال ومطرقة وكتب ومجلات وجرائد، فكل أوقية كان لها حسابها فأمامنا آلاف الأميال . . . . . والحقيقة أننا نغوص فلماذا ؟ حاولت أن أقنع نفسي ثم أقنع الآخرين بأن هذا الغوص سوف يتوقف . . . . . ومرت ثلاثة أيام أخرى وبدأ الأمر وكأننا لا نغوص ولكننا لا نتقدم كثيراً فحاولنا أن نستخدم المجاديف الثقيلة ولكن بدون فائدة . وانتهى الخطر . فقفزنا إلى البحر لنستمتع بالحياة في هذا الهدوء الشامل . البطة مربوطة من ساقها والقرد صافى يحاول أن يصل إلى سطح الماء، وسبحنا تحت القارب ر ع حيث رأينا مدارس عديدة من الأسماك . وكان القارب يبدو رائعاً تحت الماء في غاية القوة والمتانة . وكان الذيل قوياً ورشيقاً . وقال جورج ويورى إن حزم البردى رفعت نفسها

قليلاً فوق سطح الماء . وربما كانا على صواب لأن الشمس الاستوائية قد امتصت الرطوبة من أعواد البردى في أثناء الأيام الخمسة الأولى .  
مكثنا أسبوعاً ونحن في كسل وتراخ لا تهب الرياح إلا نادراً من الشرق والغرب . ثم بدأ الهواء يهب خفيفاً في بادئ الأمر وفي كل مرة كنا ننزل فيها إلى البحر كنا نربط أجسامنا بحبال حتى لا يندفع عنا القارب ولا نستطيع اللحاق به . .

وجاءت الرياح . . . فأسرعنا إلى المجاديف . . . وفي يوم ١٦ مايو خرج نورمان من المقصورة ومعه السكستنت — جهاز لقياس الزاوية — أو آلة للتحقق من مركز السفينة بالنسبة إلى خطوط الطول والعرض — ومعه كذلك ورقة وقلم وتنفس الصعداء وقال إننا نعبركيب جوبى وهذه صخور الشاطئ أعداء رع الثاني الخطرة وقد تخطيناها وأصبحت خلفنا وأمامنا البحر الآن وقد فتح ذراعيه عن آخرهما لاحتوائنا . . .

كانت الحياة فوق قارب مصنوع من الورق أو من نبات البردى حلوة رائعة . وكم من مرة كانت طيور البحر تحط على أعلى الشراع أو مقدمة السفينة لتستريح ، وكذلك العصافير والبلابل الملونة والحمام ، وتشاركنا المراقبة فوق جسر القارب بعض الوقت قبل أن تستأنف رحلتها الطويلة عبر المحيط العريض . . . وأصبحنا حديقة حيوان عائمة فمدارس الأسماك من تحتنا والطيور فوق القارب بألوانها الزاهية تلتقط ما يلقي إليها من حبوب وتشرب الماء القراح في ذلك المحيط الملحي . . . واستمر القارب في سيره لا يلوى على شيء وعبر جزر كنارى بدون أن يحاول الوصول إلى الأرض ،

وبدأت الطيور التي استراحت فترات طويلة تتركنا إلى الشاطئ .  
عند ما جاءت الريح ارتفع رع الثانى قليلا فوق الماء وبدأت سرعته  
تزداد من ستين ميلا إلى سبعين ثم إلى ثمانين ميلا فى اليوم الواحد وبذلك  
أسرع بنا إلى المحيط المفتوح .

ومرت الأيام سعيدة هائلة كنا نغنى فيها ونضحك لا شىء نرمله . . .  
اشتركنا فى مناقشات عديدة بروح ملؤها المحبة والصراحة والسماحة . ومرت  
الأيام والليالى والأسابيع ، ومر شهر بأكمله حتى ضيقنا ذرعاً بهذا الهدوء . . .  
لم تكن الرحلة هذه المرة مثل الرحلة على القارب رع الأول . . . لا إثارة  
ولا أشياء تتحطم وتتناثر ولا حبال تتمزق أو تنهار .

قطعنا ١٧٢٥ ميلا من نقطة البداية وكان علينا أن نقطع ١٥٢٥ ميلا  
فى مياه ملوثة بالزيت والأسماك النافقة . وفى اليوم التالى اشتدت الريح ،  
وفى اليوم الذى تلا ذلك أى يوم ١٨ يونيو بدأ البحر يعالو والأمواج ترتفع  
كالطود الشامخ بشكل لم نره من قبل . كان الأمر مثيراً فى أوله ثم أصبح  
عادياً بعد مرور الوقت . وكان الشىء الأكثر إثارة وغرابة احتمال القارب  
ومواجهته لهذه الجبال من المياه . . . ووقفت وحدى فوق الجسر فى نوبة  
حراسى خلف المقصورة أحرك المجداف لنسير فى الطريق برغم ارتفاع  
الأمواج إلى خمسة وعشرين قدماً . واستطاع رع الثانى أن يمر من بين  
جبال الموج هذه بأناقة ورشاقة ولم نحصل منها إلا على رذاذ . . . ولكن  
حركة الأمواج الصاخبة المضطربة لم تتركنا وشأننا بل بدأت المياه تنهال  
على القارب كأفواه القرب وتحطم المجداف الرئيسى فألقينا بالمرساة ، وانقلب

البحر رأساً على عقب ، ونجحت في تحريك مجداف الجانب الأيمن للسفينة عدة بوصات قليلة ، ومع ذلك ظلت الأمواج تضرب القارب كأنها مطارق . فاضطررنا إلى توطئة الشراع حتى لا تتمزق السفينة فهبط القارب فصرخ نورمان « ارفعوا الشراع قبل أن تسيطر علينا الأمواج » . ومع ذلك كله فلم يتحطم عود واحد من أعواد البردى بل صمدت كألواح الخشب وعلمتنا هذه الحادثة أنه كان يجب أن نربط المجداف بحبال رفيعة . وكان هذا ما فعله قدماء المصريين ، ولكن هذه الملاحظة الدقيقة فاتتنا . . . .

كان من العسير أن ننام في هذه الليلة فقد أصبحنا مرة ثانية على سطح القارب رع الأول وأطنان الماء تتدفق على جوانب السفينة وجانبها الأيمن ، وكأن نهراً يجري من فوقنا ثم يختفي ويعود إلى التدفق وهكذا . . . .

وجاء يوم آخر لم يكن أفضل من سابقه ، وكنا منهكين تغطينا المياه الصاخبة ، فشرعنا نلقي بالقوارير المحطمة إلى الماء ، ونربط الأشياء ، ونحكم شدها بالحبال . وكانت الحبال الحلزونية الملفوفة حول البردى لا يزيد سمكها عن أربعة عشر ملليمتر ، ولم يسمح الهنود بأن تلف حزم البردى بحبال منمكة ، ومع ذلك فقد كنا نفوص بسرعة تحت جبال الماء المتساقطة علينا .

استطاع القارب أن يواجه الأمواج بشجاعة وأصبحنا في وسط الأطلنطي على بعد ١٩٠٠ ميل من نقطة البداية وعلى بعد ١٣٥٠ ميلاً من هدفنا ، ومكثنا يومين كاملين نقاتل في سبيل إنقاذ أرواحنا ومعداتنا رحلات وع

وظلت الأمواج ترتفع إلى خمسة وثلاثين قدماً . وبعد مجهود مضمن استطعنا أن نحول مجداف الدفة نحو البحر ، ونتجه غرباً بسرعة تحت الشراع المطوى . وفي اليوم التالي رفعنا الشراع فارتفع القارب وازدادت سرعته إلى ثلاث عقد فقطعنا أكثر من مائة كيلو متر في اليوم الواحد . وثبت يورى ستاراً سميكاً على جانب رع ليوقف فيضان الأمواج على السطح ونجحت التجربة .

وهزت الأيام والأسابيع ونحن في صراع مع الأمواج وبعد تحطيم المجداف بدأنا نوزع الماء على الركاب بقدر نصف لتر كل يوم . كما كان نصيب البطة سندباد والحمامة والقرد تماماً كنصيب الرجال . . . واحتج جورج على هذا التقسيم .

خطر لنا فكرة ونحن في نوبة الحراسة : إذا استطعنا أن نحرك الصاري إلى الأمام قليلاً فمن السهل أن يقود نفسه مع الريح . . . ونفذنا الفكرة بعد عمل دام عدة ساعات ، وتحسنت القيادة في الحال واتجه القارب رع الثاني غرباً بسرعة خيالية وتوقفت حكاية غوصه تحت الماء ثم قررنا نشر مقدمة السفينة فاستقام القارب في سيره وبعد أيام قليلة أخرى قررنا نشر قمة المؤخرة أيضاً وذلك لتخفيف وزن القارب .

\* \* \*

في النصف الثاني من الشهر الثاني كنا نبحر بسرعة في اتجاه بربادوس B واتصلنا لاسلكياً بعائلتنا ونقل إلينا المذيع أن قارب أبحاث سوف يزورنا في الغد . . . وفي يوم ٢٥ يونية هبطت على رع الثاني



فراشة كبيرة فهل أصبحنا قرييين من الأرض ؟ . . .

بلغنا المنطقة التي هجرنا فيها روع الأول بعد الأيام العvisية التي قضيناها في صراع مع البحر . وفي نفس المكان تقابلنا مع عدد من أسماك القرش ، ولكنها في هذه المرة لم تعبأ برع الثاني .

وفي السادس والعشرين من شهر يونية بدأ البحر يثور مرة أخرى وهطلت الأمطار . وفي اليوم التالي اختفت الحمامة بعد أن حامت حول روع في دائرة . وكان معنى هذا أن الطوفان قد انتهى بعد أن فقد الفلك حمامته . . . وفي يوم ٢٨ يونية ارتفعت حرارة الماء درجتين وفي التاسع والعشرين تسلق القرد صافي الصاري وراح ينظر إلينا من هذا العلو الشاهق وفشلت جهودنا في إنزاله ، وعند ما أحضرنا لعبته المفضلة ، ضفدعاً من الكاوتشوك ، هبط على الأثر ، ومن المقصوره صرخ نورمان فقد اتصل لاسلكياً بقارب الأبحاث الذي طلب إلينا إطلاق بعض الصواريخ للعثور علينا في البحر الهائج . . .

بعد منتصف الليل أيقظني نورمان وهو يقول : أسرع لترى ما هناك ، فأسرعت ومن خلفي سانتياجو ، لأرى ما الخبر . . . وكان ما رأيته كأنه يوم القيامة ، ففي الأفق البعيد في الشمال الغربي نهض قرص من البحر واتسع اتساعاً غريباً كأنه قرص من الألمنيوم أشد لمعاناً من طريق اللبانة . ومستديراً استدارة كاملة . وكان هذا القرص يتجه نحونا عبر السماء . وكان القمر في الناحية العكسية ، فظننت في أول الأمر أنه انعكاس لحاجز من الرطوبة تنبعث من خلفه أنوار كاشفة أو ربما سحابة ذرية

سببها خطأ إنسانى ، أو ظاهرة من ظواهر الأضواء الشمالية . وغلب على ظنى أنها أجسام غريبة تهبط علينا من الفضاء الكونى . ثم فجأة توقف نمو هذا القرص الغريب وذاب فى الحال واختفى تمامًا ووقفنا حائرين لا نستطيع أن نعلل هذه الظاهرة . . .

أطلقنا عدة صواريخ فى بهيم الليل وسمعنا بعدها صوت القارب . وفى اليوم التالى سمعنا أن الظاهرة التى رأيناها فى الليل شوهدت كذلك فى بربادوس فهل كانت مجموعة من الصواريخ أطلقت من كيب كيندى . انفجرت واحترقت وهوت من الفضاء؟ لم نعرف السر مطلقًا وقال البعض إنها أطباق طائرة لأننا كثيراً ما رأينا أضواء برتقالية صغيرة فى الشمال الغربى من الأفق فى الليالى الماضية . . . وفى فجر يوم جديد استطاع نورمان أن يحدد مكان قارب الأبحاث بأجهزته الدقيقة وراء الأمواج العالية . ومكثنا طول اليوم دون أن نعر علىه ، حتى اقتربت الشمس من المغرب . وأخيراً اقترب منا القارب الضخم وعليه علم الأمم المتحدة وتبادلنا التحيات مع القبطان والبحارة وكان الظلام يقترب بحوافله وأخيراً تركنا القارب وحدنا بين الأمواج . . .

وفى الأربع والعشرين ساعة الأخيرة بلغت سرعتنا ١٤٠ كيلومتراً ، وكان قارب الأبحاث يجد فى أثرنا وقدم لنا القبطان ما كان يلزمنا من معلومات وطعام ، وظل بجوارنا يومين كاملين ثم أسرع فى اتجاه بربادوس . ومرة أخرى أصبحنا وحدنا فى المنطقة التى ولدت فيها أعاصير الأطلنطى ، وكان الجو غير مستقر ، وجدران الماء تهبط من السماء ،

وتغمر جوانب القارب . وقاومنا الأنواء وألقينا بالمرساة لإنقاذ الشراع  
وصادفتنا ريح طيبة وأسرع القارب في الأيام الأخيرة من الرحلة يقطع  
١٥١ كيلو متراً كل يوم . . .

وفي يوم ٨ يوليو وعلى بعد مائتي ميل من بربادوس أرسلت الحكومة قارباً  
سريعاً لتحميننا وكان على ظهره زوجتي إيفون وابنتي أنت .

ومرت ليلة ويوم كذلك والقارب لا يعثر علينا وظل البحث عنا دائراً  
لمدة ليلتين ويومين . . . وفي مساء اليوم الثاني وكنا قد أصبحنا على بعد  
مائة ميل من بربادوس رأينا القارب وعليه امرأتان تلوحان بقوة .

وفي اليوم الثاني عشر من شهر يوليو هبطت الطيور على القارب وفي  
تمام الساعة الثانية عشرة والرابع ارتفعت أصوات الترحيب من بعيد ، فقد  
رأينا الأرض لأول مرة بعد رحلة طويلة شاقة ، وصرخ القرد ورفرفت البطة  
بجناحيها . وكان القارب رع أكثر جرأة وشجاعة وإقداماً وهو يتجه  
نحو الساحل . وأطلق القارب السريع صفارته ثم رأينا الأرض جميعاً . . .  
لقد نجحت رحلتنا نجاحاً منقطع النظير وعند ما تجمعنا حول  
المائدة لتناول طعام الغداء كان ذلك غداءنا الأخير . وبعد الظهر سمعنا  
صوت طائفة تتبعها طائفة أخرى وتقدمت نحونا القوارب وعليها أقارب  
البحارة .

لقد أنهينا رحلة رع الثاني وفي ميناء ( بريدجتاون ) Bridgetown  
طوينا الشراع العظيم . وكان الميناء مزدحماً بالألوف من الناس بعد أن  
قطعنا ٣٢٧٠ ميلاً بحرياً أو ٦١٠٠ كيلومتراً .

وقبل أن نرسو بالقارب روع الثانى تصافحنا نحن الثمانية وكان الفضل لهذا النصر العظيم يرجع إلى التعاون الوثيق بيننا . . . نحن أبناء القارات المختلفة . وألقينا نظرة أخيرة على المحيط ، فها هو كما كان فى أيام كولمبس ، وكما كان فى العصر الذهبى لقبائل الكاسيوس وأيام الفينيقيين . . . المحيط الذى لا نهاية له . . .

وقفزنا إلى الشاطئ حفاة الأقدام . . .

واندفع تيار المحيط وحده بعد سبعة وخمسين يوماً قضيناها معه أو  
[ بعد ٥٧٠٠ سنة . . . فهل تغيرت الإنسانية ؟ الطبيعة لم تتغير والإنسان  
هو الطبيعة . . .

## الخاتمة

أقدام جافة ، وشعر جاف - كل شيء أصبح جافاً . . . النوافذ مغلقة ، والأشجار الضخمة في الخارج تتمايل مع عنف الرياح . ولكن الأوراق الموضوعة على مكتبي كانت ثابتة لا تتحرك ، وكذلك شعر رأسي . كل شيء هادئ ثابت . . . فأنا بخير . وقد عدت إلى غرفة مكتبي . وبين أغصان الشجر المتحركة كنت أرى المياه الزرقاء . . . مياه البحر الأبيض المتوسط ، الطريق لكل الحضارات الأولى ، وحلقة الاتصال بين القارات الثلاث التي تحيط به فيما عدا المنفذ الطبيعي الوحيد عند جبل طارق . وعلى سطح المياه رأيت قمماً بيضاء ، ولكن لكي أسمع صوت الأمواج كان لا بد أن أفتح النافذة . . .

كان شعوري بالعودة سالماً إلى غرفة مكتبي غير مصدق . وقد رصت الكتب والمجلدات على الأرفف . الكتب مغلقة وكذلك النافذة . . . ونشرت خريطة كبيرة أمام النافذة التي تواجه البحر ، فكشفت عن المحيط الأطلنطي بالطريقة التي رسمها مهندسو الخرائط . . . محيط مسطح ضخم لا حياة فيه . يقسم عالمنا مثلاً إلى قسمين : أفريقيا على اليمين وأمريكا على اليسار . . . الشمال إلى أعلى والجنوب إلى أسفل . وجلست أتأمل هذه الخريطة الغربية والطريقة التي صممت بها الطبيعة القارتين .

والمحيط الذى يبدو ساكنًا كأنه صحراء لا يميزه غير اللون الأزرق لأن لون الأرض يكون عادة أصفر أو بنيًا أو أخضر أو أبيض . . .

كان الإنسان يتوقف عند ذلك الخط الأزرق لأن عبور المحيط كان دائمًا من الأمور الصعبة . وبعد أن تأملت هذا الجسم المائى العظيم بعض الوقت جذبت المحيط فالتفت الخريطة على نفسها . ورحت أنظر إلى البحر الأبيض وأمواجه تتحرك وفتحت النافذة أصغى إلى صوت الموج وهو ينكسر على رمال الشاطئ ، وتركت الهواء يعبث بالأوراق التى كانت ثابتة منذ قليل على مكثي . . .

لو تكلم هذا البحر لسرد قصص الرحلات التى لم يسجلها التاريخ فى القرون الوسطى ، وقصص أبطالها الذين كانوا كالديناميت . . . أصحاب خيال واسع وذكاء خارق وشجاعة نادرة وكانوا أقوى من غيرهم يؤمنون بألحتهم ويخلصون لها . . .

إن بحارة من مصر القديمة تركوا البحر الأحمر ليزوروا موانئ مملكة العراق وآسيا . ومن مصب نهر النيل عبروا شرق البحر الأبيض المتوسط ليجبوا الضرائب من الجزر البعيدة لحساب الفرعون . وشعب مصر ، وكذلك شعب العراق اتحدا وربطتهما معاهدات برغم أنهما كانا يتكلمان لغتين مختلفتين ويكتبان بطريقة مختلفة ، وأنجب كل منهما بحارة مدربين كالمهندسين المعماريين ورفعوا شأن الحضارة ، وجعلوها تزدهر ازدهاراً وتصل إلى أقاصى الجزر التى تبعثرت فى الشمال والغرب . . .

إننا لا نعرف على وجه الدقة متى بدأ النفوذ المصرى يمتد إلى هذه



الجزر ، لأنها وقعت بعد ذلك في أيدي الفينيقيين ، ونحن لا نعرف إلا النزر اليسير عن هؤلاء أيضاً وعن نوع القوارب التي بنوها في أول الأمر ، فقوارب البردي كان يستخدمها جيرانهم في الشرق والجنوب وحتى في الغرب لأن النقوش القديمة في كريت كشفت عن قوارب بردية على هيئة هلال عليها صواري ومقصورات .

ومن المياه الفينيقية انتشرت الحضارة فيما وراء جبل طارق إلى ليكسس<sup>(١)</sup> «Lixus» على سبيل المثال حيث عاشت قوارب البوص . . . ولا يستطيع إنسان أن يقتنى أثر الطرق التي كانت تقطعها هذه القوارب الورقية أو يعيد بناء العلاقة بين هذه الحضارات المتباينة التي أثرت تأثيراً مباشراً على الحضارات المحلية الأولى ومارسها حكام مختلفون في بيئات جغرافية متباينة . . .

من الذي يستطيع أن يعطى صورة واضحة للبحارة الذين جابوا البحار في القرن الرابع قبل الميلاد ؟ والذين كانوا يحملون جراراً من الذهب والعملات النحاسية لحوض البحر الأبيض المتوسط إلى جزيرة كورفو Corvo في الأزورس . وهي جزر قريبة من شمال أمريكا عنها إلى جبل طارق ؟ فهل كان هؤلاء البحارة يجرون وراء الهروات أم يفرون من بلادهم كلاجئين ؟ إن ألوفاً من السفن غادرت موانئ بلادها خلال هذه الأزمنة القديمة ولم يترك أصحابها وراءهم أى أثر مكتوب .

(١) هي ميناء العرائش المغربي على المحيط الأطلنطي وقد أطلق عليها

الأسبان : لاراشا ، والفرنسيون : لاراش . (الناشر)

إن الفنانين الملكيين في مصر القديمة سجلوا الحملة البحرية للملكة حتشبسوت في مراكبها الخشبية التي أبحرت من البحر الأحمر إلى بونت . وعن طريق المصادفة وحدها سجل الجغرافي المعروف بإيراتوسين المسافة بين سيلان ومصب نهر ( الكنج ) ، وذلك بحسابه عدد أيام الإبحار التي كانت تقطعها قوارب البردى ذات الأشعة والحبال المصرية .

وعند ما أبحر الأمير هانو خلال مضيق جبل طارق في القرن الخامس قبل الميلاد ومعه ستون سفينة محملة بالبضائع وألوف الاستعماريين من الفينيقيين من الجنسين سجلت هذه الواقعة على عمود أثري في قرطاجنة اعترافاً بفضله . . . .

ومع ذلك فالرسم الأثري المحفور لا يبرز هانو كرائد من رواد البحار لأنه في اليوم الرابع من رحلته فيما وراء جبل طارق وصل أسطوله إلى ليكسس حيث استأجر بحارة محليين كانوا يعرفون الساحل معرفة أكيدة ، وكذلك أنشأ الموانئ على طول امتداد الرحلة لثمانية وعشرين يوماً . . . .

وكان هانو يحتفظ على سفنه بمؤن تكفي لمدة شهرين ولكنه استدار راجعاً عندما وصل أسطوله إلى ساحل أفريقيا الغربية الاستوائية ، وفسر الإغريق هذا الأثر فيما بعد ، على أنه يحدد تعداد ليكسس حيث أقام بينهم الأجانب طلباً للصدقة والنصيحة . وكان هؤلاء الرحالة يجيدون استثمار العلاقات الطيبة حتى مع الشعوب البدائية المعادية . وطبقاً لسجلاتهم وقبل أن يجرعوا على ترك سفنهم كانوا يرسلون هدايا مغرية كعنوان للصدقة ويتركونها على الشاطئ لتلتقطها القبائل المحلية . . . .

إن الفوائد البديهة للتعاون الدولى بالنسبة للرحلات إلى البلاد الغربية أو الأجنبية كان يؤمن بها رجال العصور القديمة بجانب المصريين والفينيقيين . لهذا السبب ارتبط المصريون والفينيقيون بأول رباط تاريخى سجل الدوران حول أفريقيا وذلك بقرنين تقريباً قبل أن يعد هانو أسطوله من المهاجرين ، والذي أبحر به على الساحل الغربى الذى كان معروفاً وقتذاك . والحقيقة أن بعثة الفرعون نكاو التى أبحرت حول أفريقيا عام ٦٠٠ قبل الميلاد كانت مشروعاً مصرياً لسفن وبحارة من الفينيقيين ولم يرافق البعثة ملك أو فرعون خلال السنوات الثلاث ، لأنه لم يظهر أى أثر أو حفر على جدران قبر من القبور ، أو على عمود من الأعمدة الحجرية العملاقة . كل ما فى الأمر أن المؤرخ اليونانى هيرودوت ، سجل الواقعة قبل أن يطمس التاريخ معالمها . . .

ماذا كان نوع الحضارة التى بدأت تزدهر بين السكان البدائيين للغابات على الجانب الآخر من الأطلنطى ، إذا قدر لهذه البعثة المختلطة من الاستعماريين أن تصل إلى هناك ؟ . . .

مما لا شك فيه أن حضارة قوية قد نمت وتكونت هناك . حقيقة أن سكان أمريكا لم يروا سفناً خشبية قبل وصول كولبس إليهم ، ولكن سكان مراكش ، وسكان حوض البحر الأبيض المتوسط ، وفيما بين النهرين ، قد رأوا قوارب من البردى ، مثل تلك التى وجدت وعاشت فى أمريكا . . . لقد أجريت تجربة بناء قاربين اثنين فقط من هذه القوارب الورقية بمعاونة بعض سكان البحيرات ومع ذلك فقد قطع القاربان

زهاء ستة آلاف ميل في أربعة أشهر . وفي الرحلة الثانية رسونا على شاطئ أمريكا . ولو كنا قد بنينا مائة قارب من قوارب البردى لتعلمنا مثل هانو كيف نبحر بها آمنين جيئةً وذهاباً خلال كيب جوبي الخطر . ولكن في الوقت نفسه كم من مرة كنا سنتعرض فيها إلى تحطم الدفة ونرسوا في أمريكا ؟

أغلقت النافذة وتناولت قلمي لأكتب . . .

ما زلت لا أعرف . . . وليس عندي نظرية محدودة ، ولكن قارب البردى يستطيع أن يمخر عباب الأطلنطي . وفي رأيي أن الرحلات القديمة التي تمت في الماضي السحيق ، قد نجحت ولم تتحطم القوارب في ليكسس ، أو جرفها التيار عن الطريق الصحيح ، وهي تكافح لكي لا تتحطم في تيار كيب جوبي الخطر . . . فهل نجحنا في الذهاب إلى أمريكا لأننا ركبنا مراكب مصنوعة من خشب ، أو لقدرتنا على قيادة قوارب مصنوعة من نبات البردى ؟

عندي نظرية . . . ربما لأننا أبحرنا في المحيط وليس على خريطة من الورق . . .

تمت

## فهرست الكتاب

صفحة	
٥	مقدمة — هذه الرحلة وهذا الرجل، بقلم : كمال الملاخ
١٩	الباب الأول : لغز واحد ورأيان لا ثالث لهما
٣٥	الباب الثاني : قارب من نبات البردى
٤٣	الباب الثالث : مع هنود غابات الصبّار
٤٩	الباب الرابع : مع البدو في قلب الصحراء
٥٥	الباب الخامس : في وسط الرهبان السود عند منابع النيل
٦٩	الباب السادس : عالم بناء الأهرامات
٨٧	الباب السابع : في عرض المحيط الأطلنطي
١٠٥	الباب الثامن : من الساحل الإفريقي إلى كيب جرجي
١١٧	الباب التاسع : البحر يقوم بالمهمة
١٣٣	الباب العاشر : في المياه الأمريكية
١٥٩	الباب الحادي عشر : ستة آلاف كيلومتر فوق قارب من الورق
١٧٥	الخاتمة





تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية  
تحت رقم ٥٢٦٢ / ١٩٧٢

مطابع دار المعارف بمصر  
سنة ١٩٧٢





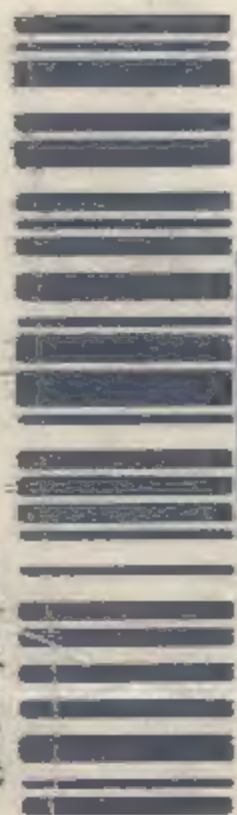


Σ.Σ.12/01

16

71

Bibliotheca Alexandrina



0241301

